





كناسة الدكان

يحيى حقي



الكتاب للجميع

مجاناً مع جريدة المدى



رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

فخري كريم

فاكس ٧١٧٥٩٤٣
هاتف ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٢
almadapaper.com
almada119@hotmail.com
almada112@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١١٦-٧٥٢٦١١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



٢٠

يحيى حقي

كناسة الدكان

إعداد ومراجعة: فؤاد دوارة

طبعة خاصة
توزع مجانا مع جريدة (المدى)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٦



(١)
من عالم الطفولة

شقشقة الفجر

من فضائل رمضان أنه يتيح لعدد كبير من الصائمين أن يتذوقوا بعد السحور متعة فترة تفوتهم هم وأغلب الناس بقية العام لأنهم من حزب نوم الضحى، فيهم من يسهر اضطراراً لأنه من الكادحين، وفيهم من يسهر دلعا لأنه من عشاق الليل أعداء الشمس. إنها شقشقة الفجر، ياله من جمال، أعجب كيف يغفل كثير من الناس عنها، ليس إلا عندها يمتلئ القلب، بأقصى ما يقدر عليه من الاحساس بعظمة الخالق، بروعة الكون، بالتشوف للطهر، بالانبهار بالجمال.

ومن العجيب أن "القرآن الكريم" منتبه لشقشقة الفجر، متيم بجمالها، إنه أقسم بالفجر "والفجر. وليال عشر"، ربط بينه وبين صدق النية وصفاء الروح: "إن قرآن الفجر كان مشهوداً" رسمه على لوحة مبهجة الألوان بخيط أبيض وخيط أسود، ما أعجب رعشة هذه اللحظة من الزمان.

الآن لا أشهد شقشقة الفجر مرة إلا ردتني بقوة إلى ذكريات طفولتي، دنياي حينئذ هي دنيا المسموعات لا المرئيات، بالليل أسمع دقة نبوت الخفير على الأرض فلا ينفع الأمن المراد لها أن توحى به إلا في إثارة مخاوفي من القوى الشريرة المبهمة التي تتربص بنا في الظلام، الجن والعفاريت والست المزيرة، والبغلة التي تصطنع الوداعة والود وتستدرجك لتركبها فإذا تحامقت ونسيت المواعظ علت بك درجة حتى تبلغ عنان السماء، فأنت في خطر أن تدوخ فتهوي إلى الأرض وبندق عنقك، ثم يشق الصمت صوت مرعب يخفق له قلبي خفوقاً مؤلماً، صوت البومة، أم قويق، ربيت على

أنها نذير خراب وقرب هبوط ملاك الموت على الأرض، لا يعود للسماء إلا وفي جعبته روح إنسان. أدعو الله في سري ألا يكون المخطوفة روحه واحد من أهلي، وكأني وثقت باستجابة دعائي، فأسأل: ترى أي الجيران سيقع عليه الدور؟ إنني أرثي له ولأهله حتى ولو كان بعد سابع جار.

وصوت البومة من طبقتين مختلفتين بينهما فاصل، أولاً خافت يشبه الأنين يبعث في قلبي الحزن مع الخوف، هذا والله هو البكاء بعينه، ثم فجأة صرخة قصيرة حادة قاسية متوحشة، لونها في أذني لون الدم، وكنت أعرف حينئذ أنها هي صرخة الانتصار حين تنقض على قنيصتها، ولكنها كانت تجعلني أحس احساساً عميقاً مبهماً بأن العالم الذي أعيش فيه يسوده قانون صارم لايرحم: قانون الافتراس، صراع بين القوي والضعيف، إما آكل وإما مأكول، كنت أرتعب من أن أكون من المأكولين، وإن بقيت غير واثق كل الثقة أنني سأكون من الآكلين، كنت على غير علم مني أمتحن قدرتي، بين الوثوق والشك. لعل هذه اللحظة من التردد صحبتني فيما بعد طول عمري.

وحين كبرت وقرأت الشعر الإنجليزي هالني - نعم، أقول هالني فهذا أصدق وصف لحالي - أني وجدت صوت البومة عنده غير كريه، لاينذر بخراب أو موت، يسلكه بين بقية أصوات الطير الأنيسة، ويرى فيها إحدى صلات الإنسان بأسرار الكون وجماله، فهتاف المخلوق للخالق، دعاء وتسبيح، كيف يمكن إذن أن يقوم تفاهم بيننا وبين الإنجليز؟

ولكن مهلاً مهلاً، كل هذه المخاوف ستزول، سيكون لها عوض جميل، سيأتي به الفجر. وستنقضي عنده الغمة، سيصل إلى سمعي صوت حلو مرتين، مرة لأنه بعيد، ومرة لأنه يملأ قلبي بالفرح والخشوع معاً، إنه صوت المؤذن: الله أكبر الله أكبر حينئذ أحس بأنني في حوزة رب قدير ورحيم معاً، صوت المؤذن هو الذي يبدد عندي الظلام والمخاوف. وها هو ذا بشير آخر بالصبح، إنه صوت الديك. يؤذن لي هو أيضاً من على سطح قريب، كأنه يقول: اصح يا نايم.

صدقني، لا أزال أذكر بوضوح صوت هذا الديك العجوز زميل طفولتي، صوت أجش كأن صاحبه من مدخني الجوزة. وكم كان يطربني الفرق بينه وبين أول أذان للديوك الصغيرة حين تبلغ أشدها وينبت طرف عرفها الأحمر، صوت رقيق ناعم لطفل يبدأ تعلم الكلام، ويبلغ سمعي أحياناً صوت طائر نسميه بالسقساقة، هو بشير خير،

ينبئ عن قرب حضور ضيوف أعزاء، أقارب أو أغراب، هي طائر ضامر مسحوب كالسهم، وربما بلغني أيضاً صوت طائر آخر كنت أراه يجمع بين الفكاهة والوقار ولكن دون أن أصدق نكاهته أو وقاره، وهذه هي مأساته، إنه صوت كأكأة الغراب.

بقي من ذراري الليل وأصواته شبح أسود ضخم له صرخة حادة أيضاً، ما مرق مرة أمام النافذة وقد فرد جناحيه العريضين إلا فزعت، إنها الحدأة، خطافة الكتاكيت وبضاعة بائع جوال يحملها على رأسه وينادي في الطرقات: "ياجابر!".. إنه بائع لحم الرأس، كل طائرة حديثة هي من سلالة الحدأة. وكنا نعجب لقول يردد علينا بلهجة التأكيد المؤيدة بالمشاهدة أن بالاسكندرية طلسما يحرمها على الحدأة، فسماؤها خلو من هذا الطير الجارح. ولا أعرف إلى اليوم مبلغ الصدق في هذا القول. وإذا لم يصدق فمن أين أتت هذه الشائعة وما سببها؟

رويت لك ذكريات طفولتي الملفوفة في قماط من عالم الأصوات، قصدت بها أيضاً أن أنبه الشباب عندنا إلى هواية جميلة منتشرة في البلاد المتحضرة، بل يتعشقها رجال وقورون في أعلى الدرجات من السلم الاجتماعي، إنها تتيح لشبابنا التزود من العلم والانتباه لأسرار الخلق وجماله، فعند أبناء كل بلد متحضر هواية دراسة طيوره، مقيمها ومهاجرها، معرفة طبائعها وعاداتها في الطعام والعشق وتربية الأولاد ،فرز أصواتها و أعشاشها وبيضها، تباين أحجامها وألوانها لو فعلوا لوجدوا في هذه الهواية أكبر النفع واللذة معاً، أم تراهم - كما فعلوا في أشياء أخرى كثيرة - يتركون ذلك للأجانب النازلين بديارنا؟

("التعاون"، العدد ٢٥١، ١٩٦٧/١٢/١٠، ص١٠)

جانب الرهبة...

عن طريق الأذن لا العين بدأ في طفولتي إحساسي بتلك اللحظة الجميلة الرهيبة معاً: مولد الفجر وتردد أوائل أنفاسه، فلا قيام للأسرة كلها من الفراش، ولا فتح الشيش لأنه جرح للخلوة عندنا وعند الجيران، ولا خروج إلى الطريق إلا والشمس قد علت قصبة ونصف على الأقل، (هذا القياس من قبيل التحسر على أنني كنت لا أسكن الريف).

هكذا حال أغلب الأسر التي يعولها موظف في ديوان، أطبقت على مسكنه جدران العاصمة، وضمان الرزق وانتظامه، ثرية مستكفية ترعرع فيها ميله إلى التكاسل.

وربما أيضاً عن طريق الأنف، فحتى في الشتاء والنوافذ مغلقة بإحكام تحس هي الأخرى بطعم الفجر حين يتسرب إليها رغم السدود هواء كأنما انعدم وزنه، رق ولطف وترطب، تطهر وتطيب فيكاد الفم يذوق أيضاً حلاوته، إنه نشوة بلا خمر، ولكن الاعتماد كله على الأذن، القابعة داخل أسوار الجدران المطبقة، المنتبهة، المفنجلة، الواقفة على ذنبها ـ كما تقول العامة ـ من فرط اللهفة والتحفز.

وإذ غابت رؤية العين فقد انطلق الخيال واشتط في شروده، وتوهم كائناً ما لم يكن، وكانت له تهاويل تقيم بدل الحقيقة حقيقة من عندها لاتقل عنها إقناعاً وصدقاً، ولأن الطفولة هي فترة التملص إلى الألف والثقة والاطمئنان ـ ولو انصياعاً أو صلحاً ـ من قبضة الحيرة والشكوك وتتابع امتحان الأشياء والمعاني والرموز، من

قبضة عالم الأسرار المجهولة لاحديث معه، أخذاً وعطاء إلا بلسان الخوف، فإن الخيال هو الذي تكفل بتضخيم جانب الرهبة بخساً بجانب الجمال في لحظة مولد الفجر وتردد أول أنفاسه، فانفلات مكاننا فوق سطح الكرة الأرضية من بحر الظلمات إلى النور يصحبه أحساس الصدور بثقل كتلتها الضخمة التي تجثم عليها، كأنما ((فوق)) أصبحت ((تحت)) إحساس بدورانها حول محورها، هذه الرحى أي شيء تطحن غير العظام واللحم منا، أحتم ألا تخف عن سمعنا إلا إذا كفت هي عن الدوران؟

احساس ـ لفترة ـ بأن المدينة الكبيرة وحش مهول، كفانا نومه بالليل شره، ها هو ذا يهم بالصحيان إنه ساذج شرس معاً، ولأنه ساذج فشراسته حمقاء، وغير مأمونة، وقد تثور لأوهى الأسباب، ومرة إنها أرض معركة، قطع الليل فيها القتال، وهاهو ذا يوشك أن يتجدد مع أول شعاع للشمس، قتال بين آلاف من الجيوش، وكل جيش قوامه فرد واحد، مدجج بالسلاح، يا قاتل يا مقتول ولا ثالث للاحتمالين، ولو فرضنا المستحيل وساد السلم فإنه هدنة بين معركتين.

ليس بالقليل جداً ولا بالكثير جداً عدد الأصوات التي تمشي بين يدي الفجر لتعلن عن مقدمه وترحب به بصوت إنسان (المؤذن)، وصوت حيوان (صياح الديك وزقزقة الطير وتسبيحة الكروان) هي التي تتكفل بزف الجمال في مولد الفجر إلى أذني، أما جانب الرهبة فكان يتكفل بها ـ ولا عجب ـ صوت للحديد، صوت احتكاك عجلات بقضيب، كانت أذني تبعد بالنهار كثيراً وبالليل قليلاً عن مهبط مسجد السلطان حسن، حين يبلغه الترام القادم من شارع محمد علي يستدير إلى اليمين بقوة الزاوية القائمة ليعيد من ورائه المسجد إلى ميدان القلعة، فيكون لاحتكاك العجلات بالقضيب عند الاستعادة صوت حاد، لا أسمعه بالنهار ولكنه يطعن أذني مع أول ترام يولد مع الفجر، فتكاد تجز له أسناني ـ صرير معدني، حاد، فج، سمج، بلا حياء، قاس، كأنه شحذ سكين للذبح، هذا ولا ريب أول صليل السيوف وقد بدأت المعركة، وعجل الترام هو اختصار للرحى التي تطحن منا اللحم والعظم.

حينئذ يتغلب في قلبي صوت على صوت، الصوت المغلوب كان يهمس لي: لا تخف، إن الله رازقك كما يرزق الطير، تمضي خماصاً وتعود بطاناً لأنها مؤمنة متكلة على ربها، خالقها، إنه بها رحيم، والصوت الغالب يفرخ لي: ليس في يدك

ضمان، فلا اتكال لك إذن إلا على نفسك وسعيك، وإلا لسقطت على الأرض وداستك الأقدام ومضغت الأنياب قبل سيرتك لحمك.

ولكن ما يكاد صوت المؤذن يصل إلى سمعي من بعيد حتى ينعكس الحال فيصبح الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا.

("التعاون"، العدد ٣٥٥، ١٩٦٩/١٢/٧، ص ١٠)

طائر الرهبة...

عن طريق الأذن لا العين يتولد احساس الطفولة بأن عالم المرئيات ملفوف بعالم آخر خفي، لا تفض أسراره.. مخيف، مخلوقاته لا نراها رأي العين بل تمثل في تصورنا بالسماع عنها، الغول. أبو رجل مسلوخة. الست المزيرة. بغلة العشري. الجن. العفاريت. الأخت المقيمة تحت الأرض. كذلك كان لقاؤنا برهبة الموت وامتناع سره عن الفهم. لا تتحرك شعرة في رؤوسنا لرؤية الجنازات أو سرادق المآتم. أو لطم الخدود، هذا شيء مزعج ولكنه غير مخيف، لقد تكفل صوت مميز - لا نسمعه إلا ليلاً - بأن ينقل الينا الاحساس برهبة الموت ولغزه في عنف شديد.

ها أنذا راقد في الفراش في حضن أمي، أنعم بلذة الشعور بالانتماء، بالحنان، بالطمأنينة، بدوام الدائم، الدنيا والعمر، ربما بين اليقظة والمنام. وفجأة تتحفز أعصابي وكل قدرتي على الانتباه والانصات. كل ذخيرتي من التوجس.

حين يصل أذني وسط السكون صوت خافت، مديد إلى قدر، متكرر على مهل.. لا أدري كيف أصفه: أنين قلب مسكين؟ فحيح حشرة من الزواحف، زومان متآمر يتلمظ بشهوة الانتقام، تلاوة ورد من متعبد؟

من أجل هذا كان من المستحيل أن أحكم هل هو حلو أم بغيض، ولكن لي به خبرة سابقة، فلا أعرف صوتا يدانيه في القدرة على بث الرهبة والخوف في قلبي لأنه هو الذي يؤذن بما سيتبعه من صرخة حادة عنيفة تشق الهواء فتنبئ أن المخالب قد شقت أيضاً صدر ضحية، صرخة وحش مفترس قاس، أتصوره حينئذ وقد تقلصت

شفتاه وكشر عن أسنانه، لمعت عيناه ببريق النصر، بلذة غمد السيف في قلب العدو، إنه قتل بانقضاض مفاجئ، وعلى حين غرة من الضحية، ولا يفوت أذني أن تلتقط من حشايا هذه الصرخة صوت وصوصة خافتة، ضئيلة العمر، كنت أول الأمر لا أتبين سرها، ثم أدركت بالتجربة والتكرار أنها آخر أنفاس الضحية بين المخالب المخضبة بالدماء.

تهب أمي فزعة من رقادها. تستعيذ بالله. تناشد الشر أن يبقى ((برة)) وبعيداً، وتسأل في توجس شديد: ترى على من وقعت قرعة الموت التي تنبئ عنها هذه الصرخة؟ في بيتنا؟ لا. لا. عسى أن يكون على أحد بيوت الجيران، لا القريبة، بل البعيدة.

هذه هي صرخة البومة، التي كانت أول من حدثني عن الموت ورهبته ولغزه. وحتى لو لم تكن البومة نذير الموت فهي نذير خراب: كان الحي الذي سكنته - وربما البلد كله - مهدداً بإعصار كاسح، سيخلع السقوف ويقوض الجدران، وتصبح البيوت خاوية على عرشها، وستجر العاصفة وراءها أكداساً من الرمال تنحط وتتعالى حتى تبلغ أعلى الشواهق. لا يبقى في اللوحة إلا لون واحد هو اللون الأصفر.

لم أرهب عزارئيل رهبتي لصوت البومة، ورغم دوام المدافعة على طول العمر المديد لم أشف إلى اليوم من هذه الرهبة تمام الشفاء... ولكن صبراً، صبراً... إن هذه الرهبة لن تلبث حتى يبددها صوت آخر.. صوت جميل هذه المرة.

("التعاون"، العدد ٣٥٦، ١٩٦٩/١٢/١٤، ص ١٠، ٩)

رسائل من عالم مجهول..

أرادوا لي وأنا طفل أن أؤمن كما آمنوا فآمنت بأن هذا الطائر الذي نسميه بالسقساقة (ولا أعرف حقيقة اسمه إلى اليوم) إذا زقزق وهو يرف بجناحين من وراء نافذتنا فمعنى هذا أنه يحمل إلينا رسالة تقول إن ضيفا سيقدم إلينا على غير انتظار منا، سيدق الباب فإذا صحنا: "من؟" رد علينا إنسان لا نتوقعه. ولا تقول رسالة السقساقة هل سنسر لمقدمه أم لا نسر، هذه مسائل غير داخلة في اختصاصها. لعل تصرفات البشر تبدو للسقساقة في غاية من البلاهة أو اللؤم، فتزدريها ولا تشغل نفسها بها.

وأن كأكأة الغراب (الطائر الوحيد الذي يخيل إليك من حركة رقبته إذا صاح أنه يتقيأ) تنبئ بالفراق وتشتت الأسرة، وأن نعيق البوم بالليل نذير بأن ملك الموت عزرائيل يحوم حول الحي كله ليخطف روحاً انتهى أجلها، كنت أدعو الله من كل قلبي أن يتخطى منزلنا ويمضي حيث شاء، ثم أشعر بخجل لأنني بعت جميع الجيران. غدرا ـ بيع السماح، مع أن النبي أوصى على سابع جار، إلى اليوم ينقبض قلبي لنعيق اليوم. ولكني لما كبرت دهشت أشد الدهشة أن وجدت نعيق البوم موصوفا في الشعر الأوروبي بأنه هتاف رقيق، حقا إن هؤلاء الأقوام من جنس غير جنسنا.

آمنت أيضاً أن الشبشب إذا انقلب رأساً على كعب فمعنى هذا أن أحد أفراد الأسرة سيخرج إلى سفر، وأن ((البورص)) إذا تسلق أحد جدران المنزل ولبد عليه وأطلق صوتا كأنه حس المكاري لحماره فلابد لي أن أصيح في وجهه: ((صاحب

البيت اسمه محمد)) وقاية لشره، بشفاعة الرسول، لأنه إذا مس الملح وأكلنا من طعام خالطه هذا الملح فلابد أن تصاب يدنا بمرض البهاق، فتغطي جلدها بقعة مشرذمة الحوافي من لون أبيض كالح، واللون الأبيض لا يصبح دميماً إلا بجريرة هذا المرض وحده، يهوى أحياناً قبقاب متيم بالقسوة وحب الأذى، عاق لأمي وعاص لنصحها بترك هذا الضيف يمضي لحال سبيله، فينقطع الذيل، ويظل هذا الذيل المقطوع يتحرك ويتلوى أمامي (وبقية الجسد - يا للغرابة - خامد) وأنا أتأمل الذيل بدهشة لا حد لها، هذا أول شذوذ يخرق قاعدة ربيت عليها - بأن الحركة هي الفرق بين الموت والحياة، هل هذا الذيل حي؟ هل هو ميت؟ هذا سؤالي الذي لا يهديني أحد إلى جوابه، هل بعض الحيوان يكمن روحه في ذيله؟ ربما، هكذا كنت أقول لأخرج من حيرتي.

وآمنت بالجن، والعفاريت، والست المزيرة، وبغلة العشري - تقابلك في ليلة مقمرة (هذا هو الشرط) وتغريك بركوبها فإذا فعلت علت بك حتى تبلغ السماء ثم تلقيك عنها فتهوي وتلقى مصرعك، وآمنت كذلك أن لي أختا تسكن الأرض (كم تمنيت أن أراها رأي العين.. هذه الأخت العزيزة) وأن بعض الرجال متزوجون من نساء من الجن، وبعضهم من حوريات البحر، الزوجة نصفها الأسفل سمكة ونصفها الأعلى امرأة، فلها ثديان كنساء البشر.

وكنت قبل أن أنام أحلم في بعض الليالي - وفي لذة كبيرة - بأن امرأة من الجن خطفتني وأنزلتني قصراً وردي اللون في كهف سحيق، قصر مسحور، ففيه سكينة متخلفة من ألف صرخة موءودة، ونسيم عليل انطلق كالروح الرضية بعد آخر شهقة من لهاليب من النار كانت تتواثب كأنها في رقصة باليه، زوجتي تتقد عيناها كالجمر وهي تقبلني، ولكنهما تشعان باشتياق وحب واعزاز لا تقدر عليها امرأة من البشر، وهي شديدة الغيرة علي، تأخذ مني المواثيق ألا أفشي سرها إذا عدت إلى سطح الأرض، وأن أظل وفيا لها، فلا أخونها مع امرأة ولو كانت بين الناس هي ست الحسن والجمال، أما عقاب الخيانة فزلزلة في عقلي فألتاث، فلا أنا عاقل ولا أنا مجنون، أو أحلم بأن حورية من البحر قد قادتني إلى قصر أزرق اللون في قاع المحيط، كأن جدرانه من البلور، جمد فيه من البرد كل شعور، حتى الشعور بالبرد.. زوجتي النارية تكلمني، أما زوجتي المائية فخرساء، ربما من خجل لأنها لم تف لي بكل عهود الأنثى، لأن نصفها الأسفل سمكة، من أجل هذا زاد حدبها علي، لا

تدري أي أطايب طعام البحر تقدمه لي، أما زوجتي النارية فلا تسأل عن طعامي وشرابي، حقاً إنها امرأة يدل عليها خلقها الشراني وهيهات أن تتنبأ بخطواتها التالية... وكنت أقول عن حورية البحر، خرساء خرساء، لابأس، فإن أكبر لذة عند العشاق هو التخاطب بالعيون.

آمنت بهذا كله، لا تقليدا فحسب، بل بلذة وطرب شديدين، إنني لا أنفي عليهم حشو دماغي بهذه السخافات كلها، بل أشكرهم كل الشكر عليها، كم كانت طفولتي بدونها تبدو لي تافهة مملة سقيمة، محدودة العقل بليدة الحس ضيقة الأفق. فبفضل هذا التلقين وجدتني أدفع دفعا وأنا في سن مبكرة إلى الانتباه إلى أن عالمنا محوط بأسرار كثيرة لانعرفها، وأن وراء الصورة التي تتراءى لحواسنا صورة أخرى نجهلها فلم ينقطع لي منذ ذلك الوقت تساؤل عن أسرار الحياة والكون والعجب لها، والعجب هو علامة يقظة العقل والروح، إنه نشوة لا تماثلها نشوة أخرى، ولما كبرت وقرأت أن بعض علماء الفلك يقولون إن عالمنا هذا هو صورة معكوسة (كأنما في مرآة) لعالم آخر بدت على فمي ابتسامة رضا وعاد لي جو طفولتي بكل براءته وحيرته وتعجبه.

("التعاون"، العدد ٢٨٨، ١٩٦٨/٨/٢٥، ص ١٠، ٩)

يمين وشمال..

ربيت أيضاً في طفولتي على الإيمان بأن اليمين رمز للخير والشمال رمز للشر، وإلى اليوم لابد لي أن أدفع بقدمي اليمنى قبل اليسرى إذا لبست البنطلون أو الحذاء أو إذا خرجت من البيت أو دخلت مكانا أرجو فيه خيرا لي، أستبشر باليمين وأتطير بالشمال، واليمن مشتق من اليمين، واليمن هو الخير والبركة والقوة.. والشمال في القاموس هو الشؤم.. وليس للكلمتين مصدر واحد كما في اليمن واليمين.. أو قل ربما دل وجود حرفي الشين والميم في الكلمتين على وجود مصدر قديم ضاع، هو الأصل في اشتقاقهما.

وواضح أن التفاؤل باليمين ترتب عليه التشاؤم بالضد وهو الشمال، وهذا من سوء حظ كلمة الشمال وكل ما تمثله.. وأعتقد - وإن لم تكن تحت يدي مراجع - أن هذا التفريق بدأ حين أدرك الإنسان لأول مرة معنى الطهارة والنجاسة،حكم بأن هناك أشياء طاهرة - كالماء - وأشياء نجسة كجثة الميت، فخصص يده اليمنى لتناول الأشياء الطاهرة ويده اليسرى للمس الأشياء النجسة، وبدأ يتبارك بيده اليمنى وأخذ يعمل بها أكثر من عمله بيده اليسرى، هذا تعليل لا يشفي الغليل لأن السؤال لايزال قائماً: لماذا اختار اليمين مثلاً - دون اليسار - للطهارة والعمل؟. هذا الإنسان البدائي العبقري الذي عرف كيف يأتي بالمعجزات: الزراعة - استئناس الحيوان - إشعال النار - التعبير عن نفسه - الرسم على جدران الكهوف - لا تزال حياته محاطة بالغموض.

ومما ساعد على هذه التفرقة بين العضو اليمين والعضو الشمال أن ظاهر جسد الإنسان مقام على قانون الثنائية وتطابق الجزأين مع تعاكسهما، كأنه باب من ضلفتين

متماثلتين متعاكستين ينشق من منطقة على خط يخرج من وسط الجبهة إلى سن عظمة الأنف، ويمتد إلى الصرة حتى العصعوصة في نهاية العمود الفقري، وبقيت الساقان متدليتين ولكنهما خاضعتان للقانون ذاته.. فكل ما تجده على يمين هذا الخط تجده معكوساً على يساره، كأنه صورته في المرآة. وأحب أن أذكرك هنا بما فعله الفنان الفرعوني حينما رسم جسد الإنسان على الجدران.. رسم الرأس منظورة إليها من جانب (بروفيل) ونظر إلى الجسد منظورا إليه من أمام. فلما جاء لرسم القدمين جعلهما في صورة واحدة.. كلاهما قدم شمال.. أي الإبهام هو آخر أصبع في يمين القدم اليمنى واليسرى.. ولكنه في النحت التزم - بطبيعة الحال - النقل بصدق عن الواقع.

هذا هو قانون ظاهر جسد الإنسان (التماثل وتعاكس الجزأين) ولكن إذا فتحنا بطنه ونظرنا إلى جوفه وجدنا هذا القانون ساريا في بعض الأعضاء دون بعض.. فلنا جزءان للرئة متقابلان متعاكسان، وكليتان ولكن لنا قلب واحد ومعدة واحدة وكبد واحد وطحال واحد.. ما هو سر اختلاف القانون في الظاهر عن الجوف؟.. لا أحد يدري إن كان هناك منطق جاز لنا أن نقول إن تطور الإنسان لابد أن يسير به إلى إعمال هذا القانون في جوفه كما في ظاهره فيكون له في يوم قلبان وكبدان وطحالان، لأن النقلة الكبيرة في التطور كانت في انتقال كائن حي من التطابق على الجنبين - كما في السمك ورأس الطير إلى التطابق والتعاكس من أمام - كالحيوانات الثديية والإنسان - أي اجتماع العينين على سطح الوجه بدلاً من أن تكون واحدة عن يمين أو فوق وواحدة عن يسار أو تحت.. أعذرني إذا سرح الذهن في عجائب صنع الله فلن يسلم من التخريف.. إن عمرا كاملاً ينصرف في تأمل عجائب خلقة الإنسان، ينقضي ويبقى العجب على حاله.

أقول - عودا على بدء - إنني كنت في طفولتي أتلقى الضرب على يدي الشمال إذا هممت أن آكل أو أكتب بها، كأنني ارتكبت جريمة فظيعة، وظللت بقية عمري لا أشهد إنساناً يستخدم يده اليسرى دون اليمنى إلا انتابني شيء من القلق والنفور، وأحسست أن هذا الأشول مخلوق شاذ، وخرق في قانون مستتب ونظام سائد، واعتبرته من جنس يختلف عن جنسي.. ولكن النفور يتراخى ويحل محله شعور بالعطف، أو قل بالرثاء، وهذا تفسير ما قلته لك مرة سابقة، لما كبرت وقرأت أن بعض علماء الفلك يقولون إن عالمنا هذا هو صورة معكوسة (وكأنما في مرآة) لعالم آخر بدت على فمي ابتسامة رضا وعاد لي جو طفولتي بكل براءته وحيرته وتعجبه.

("التعاون"، العدد ٢٨٩، ١٩٦٨/٩/١، ص١٠)

هذا العالم الخفي المجهول..

إننا نفقد بتجاوز مرحلة الطفولة إحساسا غريباً ـ هو لذيذ ومخيف في آن واحد ـ بأن وراء عالم الواقع الذي نعيشه عالما خفيا مبهما، يحيط بنا، ويتدخل في حياتنا، ويخاطبنا صراحة أحياناً ورمزاً أحياناً، إنها خسارة جسيمة، لأننا نهبط من الروعة والدهشة والاهتزاز النفسي إلى وجود رتيب وطمأنينة تافهة مقامة على مسلمات اصطلحنا عليها، وقلما نناقشها، وإن بقي صوت ضئيل جداً يهمس لنا بخفوت أن لا ضمان بأنها غير زائفة.. ولكنه صوت غير مزعج، إذ أننا درجنا على الاستراحة في حضنه بتأجيل الإجابة على الأسئلة إلى الغد، ونحن نعلم أن هذا الغد لن يأتي أبداً. حتى إذا وصلنا إلى مرحلة الرجولة تتبعنا بشغف تحسس العلماء لهذا الواقع الخفي المجهول، ولكن هيهات لهذا التتبع أن يثير في قلوبنا ماكانت تحس به أيام الطفولة من الروعة والدهشة. الخبز الطازج أصبح بائتاً، وشتان بين الطعمين.

وقد نشأت في بيت لا أزعم أنه كان بدعة بين البيوت، غاية ماأستطيع أن أشعر به هو أن جوه كان يحملني وأنا في سن صغيرة جداً على بدء الإحساس بهذا العالم الخفي المبهم.

أتلقاه أحياناً بفزع، حين أسمع الرعد، كان أهل البيت يضطربون عند سماع الرعد، ويرونه علامة على غضب من الله، وربما تمتمت أمي ببعض الآيات، واستغفرت الله كثيراً وأنابت إليه.

فكان هذا الرعد من أوائل النوافذ التي أطل منها إلى ما وراء، وقلبي خائف..

أول صورة ارتسمت في ذهني لربنا تمثلت لي في الرعد، قابلته أول مرة مع الأسف وهو غضوب. أما أنه رحيم فقد تعلمته فيما بعد بالتلقين. وعشت أحاول أن تطمس صورته الرحيمة صورته الغاضبة في قلبي، محاولة لم تمض بغير جهد.

أتلقى هذا العالم الخفي المبهم بفزع أيضاً حين أخاف من العفريت وأنا طالع السلم في الظلام، أو و أنا مار بالليل تحت البوابة في الحارة، حيث تنتظرني الست المزيرة، لم يكن الفزع أن العفريت أو الست المزيرة سيصيباني بشر، بل لإحساس بأن عالمنا مسكون بأقوام لا نراهم، جنسهم ليس مثل جنسنا، مهما أحكمنا غلق الأبواب والنوافذ فلن نسلم أن يكون معنا مخلوقات لا ندري من أمرها شيئاً.

وأتلقى هذا العالم الخفي المجهول بشيء من التلذذ والانبساط حين بصرني أهل البيت ببعض الرموز، تدل على أن هناك قوى لا نعرفها تحدثنا بهذه اللغة الحلوة الظريفة الذكية، إذا جاء أمي صوت السقساقة قالت إننا ننتظر ضيفاً، إذا ركبت فردة شبشب على الأخرى قالت: إننا على سفر، إذا طرفت عينها أو شرقت وهي تشرب قالت: إن إنسانا بعيداً يذكرها في تلك اللحظة، إذا انكسرت المرآة أو الكوب قالت: إنها أخذت الشر وراحت. إذا سمعت صرخة البومة انزعجت وقالت: ربنا يستر، وفهمت منها أن هذا هو نذير الموت، هنا يعود الفزع فيختلط باللذة.

وتفتح لي نافذة أخرى على هذا العالم الخفي المجهول وأنا أستمع إلى أهل البيت بشغف ودهشة وهم يتحدثون في الصباح عن أحلامهم بالليل كأن لهم ولعاً شديداً برواية هذه الأحلام بعضهم لبعض. أما عمتي الأرملة التي تقيم معنا فقد تخصصت فيما يبدو ـ في أحلام تشبه الروايات الطويلة المفككة، بلا روابط بين المشاهد، فهي تقول لنا: إنها رأت نفسها قد دخلت حديقة يانعة، ليس كمثلها حديقة في الأرض، فيها أناس يلبسون أخضر في أ خضر، ثم إذا بها فجأة في محكمة مزدحمة فشدتها امرأة من يدها، تطلعت إلى وجهها فإذا بها هي أمها التي ماتت منذ زمن طويل، وأنها سارت فوجدت في يدها طائرا، انقلب من فوره إلى صورة أبيها مقبل عليها بوجه ضاحك إلخ إلخ.. كانت عمتي لا تحاول تفسير أحلامها، ليس فيها شيء يستحق التفسير ولكنها كانت سعيدة بهذه الأحلام التافهة، كأنما تضاعف بها عمرها، العجب من ذاكرتها التي استطاعت أن تروي هذا التفكك مرتباً. أما أمي فكانت متخصصة ـ فيما يبدو ـ في القصص القصيرة، تروي لنا حادثة واحدة هي كل حلمها، وكانت تصر على أن هذا الحلم رسالة موجهة إليها،

فتحاول تفسيره، ربما رجعت إلى كتاب كنا نعتز به كثيراً هو كتاب "تفسير الأحلام" لابن سيرين.

من هذه التفسيرات تبينت بشيء من اللذة والانبساط وأحياناً بشيء من الخوف أيضاً - أن هذا العالم الخفي المجهول له لغة غير لغتنا، فهو يتكلم معنا أحياناً بالضد، يقول شيئاً ويريد عكسه، لماذا؟ الله أعلم. فالمرض يشير بالعافية، والإفلاس هو الغنى، والموت طول في العمر، ولكنه يلجأ أحياناً إلى الصراحة القاسية فلا يتكلم بالرمز بل يعني ما يقوله، لا أنسى انزعاج أمي ذات صباح لأنها رأت نفسها في الحلم عارية. قالت: ربنا لايحكم علينا بفضيحة.

جزى الله ((فرويد)) - لا أدري هل أقول - خير الجزاء أو شر الجزاء، فحين قرأته وجدت تفسيرات معقولة-لأحلام لي كثيرة في صباي وشبابي، إنها كما قضت على الغموض قضت أيضاً على جانب كبير من سحر هذا العالم الخفي المجهول الذي عرفته في طفولتي.

("التعاون"، العدد ١٨٨، ٢٥/١٠/١٩٦٦، ص٨)

الدودة والإنسان..

هل رأيت مرة لقاء دودة القز بورقة شجرة توت؟ الدودة قلامة ظفر، والورقة تقارب الكف، ومع ذلك فقبل أن يرتد إليك بصرك تكون الورقة قد اختفت عن الوجود، غارقة في جوف الدودة، ولكن كيف حدث هذا؟ إننا لا نرى لعاب الدودة وهو يسيل باحتدام شهيتها، ولا فكيها وهما يطبقان كالكماشة على طرف الورقة، ولاما في فمها من مصنع هائل ذاخر بالسكاكين والتروس وآلات الفرم والطحين، لا نعرف هل عيناها تبرقان من شدة اللهفة أم مغمضتان من فرط التلذذ، ولكننا نشهد بمتعة كبيرة مثلا فذا رائعاً لمعنى الالتهام الذي لا يشبع، للدأب الذي لايكل ولايمل، لاعتماد حياة قوم على قتل أقوام.

ها هو الخروف قد تم ذبحه ونفخه وخبطه وسلخه، إذا استثنينا الدم - فهو حرام - فلن يبقى فيه خير إلا كان مآله إلى الالتهام، من أول العين إلى الحافر، ومن الرقبة إلى الأمعاء، الكبد والطحال والقلب والكليتان من الأطايب، فهي شواء لوجبة الفطور يوم العيد. الفأر أسعد حظا منه. لأن ذيله تعافه القطة. سيبقى كأنه شاهد قبره، محطما على الأرض، والقبر يجري حيث تجري القطة. أما ذيل الخروف فسيغيب أيضاً في البطون. الأسنان لن تكف إلا إذا أذلها برهان أكيد على عجزها، حين تصطدم بخصم أصلب من صلابتها العاتية ستقضقض القراقيش حتى تتفتت، وتمضغ.. ستمص النخاع، ستعالج الغضروف - وهو في قوة الصدف - حتى تفصله بالكحت ثم تطحنه وتبلعه. لا تقف هذه الأسنان إلا حيث يبدأ وابور الزلط. إن بقايا عظام الخروف لم تنج من هذه الأسنان إلا بقدرة قادر.

ولكن في ركن المطبخ أو الحمام أو السطوح أو الحوش تخلف شيء لايمكن أكله مع الأسف. شيء فارغ. كأنه المظروف الذي بقي في مكان الجريمة بعد إطلاق الخرطوشة، هو فروة الخروف. مكومة كأنها معطف القتيل. سقط عنه ملوثاً بالدم. المعطف مات هو الآخر بموت حشوه. فبدا كأنه رث. قديم. كهنة. روبابكية. أصبح شاهدا لا على عز صاحبه المرحوم.. بل على بؤسه وفاقته. هو لحافه ووسادته بالليل. ودرعه بالنهار. يلبسه على اللحم. بلا قميص أو جلابية.

ماذا نفعل بفروة الخروف؟ إنها لزجة. وككل شيء لزج تصيب نفوسنا بالقرف. توحي بقدرة هائلة على أن تنفث النتن عما قريب. أن يغف عليها الذباب. لا نستطيع أن نحبسها إلا بطرف عصا تقليب الغسيل في الصفيحة. تذكرنا برائحة العطن الكريهة التي تكربنا كلما مررنا بالمدابغ.

ماذا نفعل بها ؟ وقفت البالوعة والمرحاض يتفرجان بتشف على حيرتنا. (ورونا شطارتكم) يكفيهما الدم والروث. أكبر الأمل إذن أن يرضى بها الجزار.. أجرا له. كله - ليت.. - أو بعضه. لا بأس. وإلا فسنظل نترقب بفارغ صبر صوتا يجوب الطرقات. ينادي ((جلد للبيع فروة للبيع)) سنجري لاستدعائه. ونقبل - بعد فصال قصير غير جاد من ناحيتنا الثمن الذي يحرن عنده.. إنه يمت بصلة نسب إلى (الترابية).. نزلاء القرافة. مهنة مرذولة، ولكن ما أشد لزومها لأهل الفقيد. ورحمتها به وبهم. تقول أمي: ((لننتظر رجال الإسعاف فنتبرع بها لهم. ونكسب ثوابها)). ولكن لاأحد يضمن حضورهم، يظهرون عيدا و يختفون أعيادا. غلبت عليهم طباع الموظفين.

وحين تنزاح رمة الفروة من بيتنا.. انزياح الهم عن القلب.. تختفي آخر ذكرى لنا عن الخروف الحي. ومأمأته الحزينة بالليل. ينادي أو يرد بها على تفجعات تتجاوب في الحي كله. أصبح حصصاً من اللحم. مشغولون نحن بفرز ما نوزعه منها، وما نستبقيه للشي. للقلي. للسلق. للتشويح. للتخزين.. لايزال على هذا اللحم أثر من نضارة الحياة.. يتوهج كأنه انتفاضة الذبالة قبل أن تنطفئ.. أطياف روائه ولونه الوردي.. تتذبذب كأنها آخر الأنفاس. الخلايا تتلكأ في الموت بعد طلوع الروح.

ورغم هذا كله لا أدري كيف نشأت فوجدت في بيتنا نموذجين لفروة الخروف. واحدة بيتي. شغل يد. من عمل بواب لأحد جيراننا. له خبرة في الدباغة. بطنها

كورق الكرتون المجعد. وظهرها صوف ملبد. والأخرى ذهبت إلى مصنع وعادت. بطنها مصقول لامع. وظهرها صوف منفوش. مسرح. ملون بتفتة حمراء. ولكن ((ما ألعن من ستي إلا سيدي)).. كلتاهما لا أطيقه. فرغم شيخوختهما لا تزال تعلق بهما رائحة الخروف وزنختها. خزين حرارة بدنه في صوفه لم يتبخر. حتى في عز الشتاء ينفث صهدا خانقاً. وفي بيوت كثيرة كانت فروة الخروف. البيتي. شغل اليد. هي فراش الخادمة الصغيرة. على عتبة المطبخ أو من وراء بابه.

اختفت الآن فروة الخروف من بيوتنا. وحلت محلها فراء أخرى. تجدها على أبدان آنساتي سيداتي في رحاب الأوبرا، أو في حفلات الاستقبال الهايلايف.. عقبال عندنا وعندك.

("التعاون"، العدد ٣١٥، ١٩٦٩/٣/٢، ص١٠)

صورة مخيفة للناس والدنيا..

صب على رأسي في صغري صهريج هائل من الحكم والمواعظ. بالفصحى والعامية، نثرا وشعراً، على لسان بني آدم ولسان الحيوان، رصيد ضخم من الأمثال البلدية أسمعه ممن حولي، ورصيد أشد ضخامة منحدر من التراث أقرؤه في الكتب التي وضعت في يدي، نحن في الشرق مصابون بهوس تصيد الحكمة وتقنينها والتفنن في صياغتها، نقولها ونحن نهز الرؤوس ـ دراية وخيلاء، ونسمعها بمصمصة الشفاه ـ اقراراً واستحساناً واعتذاراً.

ولا أظن أن صبيا في مثل سني في الغرب تلقى على أم ناصيته هذا الشلال الذي تلقيته، إنهم يتركونه يعمل ويلعب، ثم يرقبونه، فإذا رأوه أخطأ أرشدوه إلى الصواب بكلام كل يوم، فتكون النصيحة عملية. مستمدة من الواقع، والتدريب خطوة خطوة. أما أهلي ومدرستي فكأنما أرادوا لي أن أكون فيلسوفا من قبل أن تنبت أسناني البيض محل أسناني الخضر.

ترنحت تحت هذا الشلال لا لقدرته على سحقي فحسب، بل لأن بعضه كان يناقض بعضا، بدل أن يعلموني الفلسفة أورثوني الحيرة، حكم وأمثال تحض على الجد والسعي ولو إلى حد إهدار الكرامة ((المحتاجة غناجه))، وحكم وأمثال تحض على التواكل ((أجري يا بني آدم جري الوحوش، غير رزقك ما تحوش)).. حكم وأمثال تدعو إلى الاقتصاد ((والقرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود)).. وحكم وأمثال تزين لك ((اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب)).. الضد والضد جنباً إلى

جنب. ولا من يقول لي: خذ هذا ودع ذاك، أو متى تأخذ هذا وتدع ذاك. بل قالوا ((كل شاة برجلها معلقة)) تركوني في حيص بيص.

لا عجب أن وقعت هذه الحكم والمواعظ على أذن من طين وأذن من عجين، على لوح من المرمر لم تعلق به منها قطرة واحدة. ولعلي أكذب، فربما كان هذا التناقض قد لبد في ضميري منذ صباي وهو تعليل خوفي القديم الدائم من عدم الاستقرار ومن الحيرة، ومن بلبلة الفكر والعواطف، غير أني أستطيع التأكيد بأن نوعا من هذه الحكم والمواعظ قد رفضته منذ مبدأ الأمر رفضاً قاطعاً، لفظته نفسي كما يلفظ الجسد عضوا دخيلاً، لأنه كان يخالف طبعي ومزاجي ويرسم للناس والدنيا صورة مخيفة.

وهذا النوع من شعبتين متلازمتين كالتوءمين اللصيقين:

الأولى ـ تحض بشدة على سوء الظن بالناس، بجميع الناس بل الحذر منهم، بل (ولابد لي أن أستخدم هنا كلمة ((بل)) مراراً لأن الداهية ثقيلة ولأن التصاعد كان هو القائد) بل تذهب إلى حد التحذير من الأصدقاء بل من الأقارب بل إلى التأكيد بأن الأصدقاء هم أشد خطرا من الأعداء. ما أكثر ما نسيت ولكن ذاكرتي تأبى أن يمحي منها قولهم ـ وهذا بالنثر ـ ((الأقارب كالعقارب)) وقولهم ـ وهذا بالشعر ـ :

((احذر عدوك مرة   واحذر صديقك ألف مرة
فربما انقلب الصديق   فكان أعلم بالمضرة))

لفظت نفسي هذه الشعبة من الحكم والمواعظ لأنها تهيم بعالم تلقى فيه الناس بقلب مفتوح، وتأخذهم بعبلهم، التسامح لا النفاق سلاحها، تعلي من رابطة القرابة، وتعشق الصداقة. ستسأل: أو لم تمر بك تجربة أثبتت لك أن هذه الحكم والمواعظ على حق؟ أقول: ربما، ولكن هذا هو النادر، إن رفضي لهذه الحكم والمواعظ ربما أذاقني المر قليلاً، ولكنه أذاقني الشهد كثيراً. ولو إني أخذت بها لبقي لي المر على قلته وضاع علي هذا الشهد على كثرته. نعمت بصداقات عديدة كل واحدة منها تكفي لتكذيب هذا الحشد من الحكم والمواعظ، إن أجمل ساعات عمري هي التي تجمعني إلى أصدقائي: بالمكاتبة أو المجالسة أو أخذ الذراع في الذراع والسير كأنما على غير هدى، إنني مدين لأصدقائي بأكبر قسط من السعادة نلته في حياتي، ما أحلى ترك النفس على سجيتها مع إنسان يحمل لك الود ويترك هو أيضاً نفسه على سجيتها.

أما الشعبة الثانية فهي حين رتبت الفضائل حارت ثم استقر رأيها أخيراً على

ألا تضع على رأس القائمة إلا فضيلة الكتمان والصمت، الأدب العربي أغنى آداب العالم في الإشادة بفضيلة عقد اللسان، فأنت ترى أن هذه الشعبة لصيقة بالشعبة الأولى لأن من شروط الحذر كتمان السر وإطباق الفم، وحتى لو كان الصمت ضاراً فهو أفضل من البوح.

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام.

رفضت هذه الشعبة كلها لأني أهيم بحياة لا أجد فيها عيباً أو دنسا أو دسيسة ينبغي سترها، فإذا عقدت لساني شعرت بأنني أكتم إثماً اقترفته أو خطة سوء أدبرها، ما أفظع جدران الصمت التي نقيمها من حولنا بدل التواصل فواصل وعوازل، ما أحمق الذي يتكلم عن نفسه خيرا يعلمه الجميع.. فنحن نعيش في عالم كل سر فيه ينفضح إما عاجلاً أو آجلاً، ويأتيك بالأخبار من لم تزود. هذه الشعبة من الأمثال والحكم والمواعظ هي السبب في أن كثيراً من الناس يعيشون داخل قواقع، بل إن بعضهم ليقفل الكتاب الذي يقرأ فيه إذا دخلت عليه، بحركة تلقائية، كأن مجرد قراءته لهذا الكتاب سر ينبغي كتمانه. إنني أرثي لهؤلاء الناس من كل قلبي.

("التعاون"، العدد ٢٥٩، ١٩٦٨/٢/٤، ص٨)

إنما الدروس من حوش المدرسة.. لا من الفصل

والكلام عن المدرسة الابتدائية التي تلقفتني من السابعة إلى الحادية عشرة من عمري. عجنت طفولتي الخام بيدين متخشبتين في ماجورها المتحجر، بفك عناصرها وتذويبها في ماء آسن أولاً، والإلحاح عليها بعد ذلك بالضغط والهبد واللطم، حتى إذا تم اندماج الكل في قوام واحد اقتطعتني بالتقريص، بالزج في نار حامية رغيفاً ماسخاً (فليس في عجين هذه المدرسة ملح) يشبه جميع أرغفتها الأخرى التي تأخذ طريقها إلى المدرسة الثانوية وبيدها شهادة. هذا هو هم هذه المدرسة. لها الظاهر أما الباطن فيظل مستعصيا كالنواة الصلبة، العظام باقية تحت الجلد المصنوع لها.

في الفصل: الدروس حبر على ورق للصب في الذاكرة غضبا، بلا فهم، منبتة الصلة بالحياة والطبيعة من حولنا. لا نعلم لماذا لابد لنا أن نعلمها، وما فائدتها. الجلسة بالأمر تربيع الذراعين. لاعجب أن أصيبت يدي بالشلل من فرط الأدب.

في الفصل: عين تراقب حركاتنا وسكناتنا، وتهوي بالعصا على الكتف بسن المسطرة على أصابع اليد في عز الشتاء والقشف، وأحياناً على باطن القدم أيضاً. الكتكوت الذي يفك صاغرا رباط الحذاء ثم يخلعه، فوق ألمه خجله من جوربه الممزق. أما الصفع على الوجوه فهو علاوله. كان من المستحيل ألا يكون بين طقم المدرسة من هو غير مصاب بالسادية أو ببذاءة سككية عجرية أو بدمامة الروح والذوق.

في الفصل: يجلس التلاميذ صفوفاً حسب طول القامة أو البصر. شريكي في التختة مفروض علي، إن لم أكرهه فهو ليس أعز أصدقائي.

فإذا دق الجرس إيذانا بفسحة طويلة اندفعنا كطلقات الرصاص كأنما من بؤس السجن إلى نعيم الحرية. ما أعلى الزئيط والزعيق. شاع الجري والقفز. استرد كل تلميذ ذاته، أصبح فردا لابد أن يجد مكانه في المجتمع الطليق في الحوش. أن يواجه البشرية أخذاً وعطاء. هنا - لا في الفصل - محك قدرته على الالتحام والمشاركة في اللعب، وفي معجم الألفاظ المتداولة، والرموز المتفق عليها ونوع الدعابة الرائجة. سيتبين في الحوش لا في الفصل: هل هو قادر على هذا الالتحام فيندمج أم هو عاجز عنه فينفصل. هل هو إشعاعي أم انطوائي. كيف يكون تلقيه للنصر وتلقيه للهزيمة. سيتبين ما هو طول هذا الخيط من المطاط الذي يشد عليه عزمه وارادته، وأين ومتى ينقطع.

ستندلق أمامه في الحوش مختلف الطبائع، ولأنها لا تزال بكرا وخاما فهي مجردة من الأغطية والأقنعة، لا تخجل من عريها، مأخوذة كلها مأخذ القضية المسلم بها. لكل منا حقه في الوجود، فلم ينضج البصر والفهم بعد للانتباه إلى القضاء، والعجب له. ليس في اليد بعد قانون متكامل تبنى عليه أحكام. أشبه حوش المدرسة بباطن الغابة.

في حوش المدرسة استعراض للوداعة، أحياناً للمسكنة، لشهوة الاعتداء، للسماحة والمكر، للقناعة والجشع، للكرم والبخل، للخطف والشحاذة، للقدرة على القيادة والرضا بالانقياد. صراع خفي لا ينتبه إليه أحد بين نوازع الخير ونوازع الشر، ولكن حوش المدرسة يشبه الفصل في خصلة واحدة، هي خلو الاثنين من الرحمة، بل نجد في الحوش أن قسوة الطفولة - التي يقال عنها إنها بريئة، ملائكية - أعتى من قسوة المعلم في الفصل. بعض التلاميذ لقوا في الحوش عذاباً لا يتصوره عقل. لا رحمة للأضعف أو للأذل أو للأخيب، أو حتى للمصاب بعاهة هو غير مسؤول عنها.

في حوش المدرسة الابتدائية تلقيت أول دروس في الجنس. في الفصل كنا لا نلم به إلا حدسا، في درس الدين حين يكون الكلام عن النجاسة الكبرى والنجاسة الصغرى، ومتى يجب الغسل، ومتى يجوز الاكتفاء بالوضوء. نتقلقل في جلستنا ونهر بضحك ماسخ في سرنا. وفينا من يحمر وجهه خجلاً ولا يدري لماذا. ترى ماهذا السر الذي يحجبونه عنا؟ لاشك أنه مهيب جداً، وإن كنا لا ندرك أهو جميل أم قبيح، رغم الإيحاء لنا بأنه ((عيب)) من أشنع العيوب.

أما في الحوش فجو يتيح للغرائز أن تتنفس. من أجسادنا الغريرة بدأ يتصاعد

هبو لايزال كأنه تأتأة من يتعلم الكلام. لو كانت لنا آذان بعض الحيوان لسمعنا أزيز هذه التأتأة التي تملأ الحوش خفية منا. الفرد في الواحد مشرئب لأن يكون فردا في اثنين، النوازع إلى التكامل بعاطفة الحب تبدأ أولاً باسم الصداقة. يبحث كل تلميذ عن رفيقه. قد يجده وقد لا يجده. (هذا هو الحال بقية العمر) فإذا وجده أحس بالسعادة الكبرى في صحبته، هو الأثير عنده تمتد اليد لتلمس اليد، ليسري التيار فيهما معاً. ما أطيب وضع الذراع على الكتف، أو أخذه للذراع الآخر في تشبيكة حميمة. تموج هذه العلاقة عادة بالاقبال والصد، بالعتاب والاسترضاء، بل بالغيرة المزقة المدمرة. ما أحلى الصلح بعد خصام. ما أتعس الذي خانه صديقه فطار من يده إلى عش غير عشه. هذه هي التجارب الأولى التي تنفض من القلب كل قدراته على التموج فوق بحر العواطف، على تذوقه لما بين أقصى اللذة وأقصى الألم من درجات متفاوتة.

هذه هي البداية البريئة، ثم لا تلبث أن تفترق إلى طبقة تعلوها في الإفصاح عن الغرائز. يحوم فوقها شبح هذا السر الذي يخفيه المعلم والأهل عنا. فهذا التلميذ الصبوح الوجه، أو الملظلظ الجسد، أو أبو العيون الخضر التي يسيل منها العسل، أو هذا المفرط في أناقته، أو صاحب هذه اللثغة العجيبة - الحلوة - إذا تكلم نجد بيننا تميزه عن الجمع. يخيل إلى أنوفنا أنها تشم فيه رائحة تجذبنا إليه. نأخذ نرقب علاقاته برفقائه وأساتذته. أصبح كل واحد منا بوليسا سريا، يدور الهمس عنه، يتكاثر حوله كالذباب وقطعة السكر، أشدنا جرأة وقدرة على الاعتداء، ونقف نحن نرقب سرا تتابع حيل الصائد لاقتناص فريسته، وحيل الفريسة للهروب، هل تقع أم لاتقع.

أتدري ماذا فعل العجزة؟ ألف بعضهم من فورهم جمعية أطلقوا عليها اسم ((جميعة حماية الآداب))، غرضها الأوحد انقاذ الفريسة من الصائد.

في حوش المدرسة - لا في الفصل - تلقيت أول درس هام في حياتي. فقد خامرني وأنا لا أزال في هذه السن الصغير شك بأن أعضاء ((جمعية الآداب)) ليسوا حريصين على عفة الذي يدور حوله الهمس، بل غاضبون لأنها قد تقع في يد غير أيديهم. بدلا من أن يذهبوا للصيد صراحة وبشجاعة تسللوا إليه بالمكر والحيلة تحت قناع حماية الفضيلة. وكان أول فوز للجمعية مدعاة لأن يتحول الشك إلى يقين، فرئيس الجمعية استولى على التلميذ الذي يدور حوله الهمس. أصبحنا لا نراهما إلا

معاً، كأنهما في خلوة رغم الزحام، بين الابتسامات وقطع الشكلاتة. وسمعنا أنهما يتفقان على مواعيد بعد الخروج، وأنهما يستذكران في بيت الصائد.

والله عال. والله عال. نسي الخائن أن هناك جمعية اسمها ((جمعية حماية الآداب))، وأنه هو رئيسها. ونسي أنه مكلف بدعوتها للانعقاد، فلما انحل الرئيس انحلت الجمعية. ماتت بفضل فوزها الأول.

لم يكن غضبنا أنه وصل دوننا، بل أنه استعبطنا واتخذنا مطية وسلاحا يرهب به ضحيته.

منذ ذلك الدرس الأول في طفولتي لم أنقطع بقية حياتي عن الشك في كل واعظ إذا علا غليانه إلى درجة التشنج والنحيب تفجعا للفضيلة المذبوحة.

("المساء"، ١٨/٣/١٩٦٨، ص٤)

من كناسة الذكريات

كان احتفال البيت كله - الأب والأم والأولاد والصغار - بزجل جديد لبيرم - بالعامية - لا يقل - وهم من عشاق الفصحى - عن احتفالهم بقصيدة جديدة لشوقي. وصول الصحيفة اليومية التي نشرت القصيدة - بالتشكيل - في صفحتها الأولى (فلشعر شوقي دون بقية الشعراء مكان الصدارة مهما كانت الحوادث والأخبار)، أو المجلة الأسبوعية التي نشرت الزجل - بدون تشكيل طبعاً - في صفحة داخلية (لم تكن الصحف اليومية تنشر بعد شيئاً بالعامية. تركتها لبعض المجلات، فعصر صلاح جاهين كان لايزال في عالم الغيب) يالها من لحظة مضيئة في حياتهم. إنهم تربوا على حب الكلمة، سواء مكتوبة سواء منطوقة، والإعجاب بقدرتها حين تنزل منزلها الحق والمبتكر معاً على امتاع الذهن والروح معاً.

الأيدي تتخاطف الصحيفة أو المجلة والحجة إما مقام الكبير أو دلال الصغير، خطف يعرض الورق للتمزق. ولكنه خطف في نطاق الود لاالعداء. فهو مصحوب بالضحك والمعابثة. إن كان هناك غضب عند الهزيمة، فهو مصطنع، سريع الزوال، ينتهي بالمهادنة، لايكفيهم أن يقرأها كل منهم بعينه، ولنفسه بنفسه. لابد لهم بعد ذلك أن يتحلقوا حول من هو بينهم أكثرهم تمكنا من اللغة وإجادة للإلقاء وهياما بالشعر إلى حد أن تأخذه الجلالة، ليتلو النص عليهم ملتزماً نغمة الانشاد وحركة الخطيب، لتشترك الأذن أيضاً في المتعة. والعجيب أن لسان السامع منهم حين كان ينطق سرا في فمه بالكلمات وهو يقرأ النص بعينه، ولنفسه بنفسه لم يكن يحس له ببهجة التلاوة التي

يحس بها الآن وهو ساكت داخل الفم حين يسمعها تتلى عليه انشاداً. كانوا على غير علم منهم شهداء بأن الشعر فن يزكو بالانشاد المنغم جهراً. ثم لا يجد تمامه ولا كمال رسالته إلا إذا كان انشاده على جماعة من المستمعين المحبين له. فهو في الأصل فن خطابي غنائي جماعي. إنه يتطلب أن ينشأ تيار عاطفي متجاوب بين فرد وجماعة، كما يحركهم ويطربهم هو بأنغامه المبتكرة ومعانيه الفذة ويرفعهم من هموم الأرض إلى صفاء ذرى الفن والجمال يحركونه هم بعناقهم له، والاستجابة له. فيثبتون إيمانه بموهبته ورسالته، شرفها ونفعها وبهائها، الوحي للشاعر حمى لا يتبرد منها إلا إذا استحم في تيار عاطفي جماعي يتجاوب له، وهو الذي فجره.

ومع أن اللغة العامية كانت هي خبزهم اليومي فإنهم كانوا أقدر على قراءة القصيدة بالفصحى وإجادة إنشادها منهم على قراءة الزجل بالعامية، دع عنك إنشاده. فحركات التشكيل والتنوين مساعدة على التنغيم. والحرف في الفصحى ثابت لايتبدل، أما في العامية فالحرف يتبدل. كالهمزة بدل القاف، والتاء بدل الثاء، والكلمات ـ رغم صحة الوزن في البيت ـ تبدو منثورة فرادى، كأنها غير مترابطة، لذلك كان يرسخ في أذهانهم من القصيدة أبيات، على الأقل بيت واحد يكون هو بيت القصيد. أما عن الزجل فلا يبقى منه شيء. فكان بحثهم ومتعتهم وظفرهم في قصيدة شوقي هو النغم والمعنى المبتكر، أما في زجل بيرم فهو النكتة، خفة الدم واستجلاء سر عبقرية اللغة العامية، ظرفها ولطفها وبراعة كنايتها، وكانت بضاعتهم من النصوص العامية قليلة، وقديمة، كتاب يضم مجموعة أزجال الشيخ القوصي، وزجل قرؤوه مرة وبقي شبحه ماثلاً في أذهانهم، للأستاذ عبد الله النديم ألقاه ارتجالاً في سباق مع الأدباتية في طنطا، أيام الصعلكة، ولكن كل هذا كان له طعم الأكل البايت. ذوق العامية تحول، إنه سريع التحول، فلم يجدوا من يعبر عن حلاوة العامية في عصرهم إلا في أزجال بيرم، لايدانيه شاعر آخر، اللهم إلا إذا استثنوا حسين شفيق المصري، فقد كان هو أيضاً محبوباً عندهم، ولكنهم لايدرون لماذا قدموا بيرم عليه، لعل السبب أن حسين كان يطلع عليهم مرة بزجل بالعامية، ومرة بقصيدة بالفصحى ـ فهو موزع الإخلاص، لايثبت على حب، أما بيرم فقد كرس نفسه. كل نفسه، لحب واحد، هو حب العامية، كان عندهم هو اللغة العامية في عصرهم. وكانت هذه اللغة هي بيرم. كانوا شهداء، على غير علم منهم بأن الفن هو شديد الغيرة، لايقبل غريما.

ولا ينسى ابنهم الثالث إلى اليوم خيبة الأمل التي ضعضعته مرة، كانوا قد فرغوا من قراءة زجل لبيرم جماعة، وانتشوا جميعاً بما فيه من ظرف وخفة دم. فأخذه وطار به إلى صديق له وقال له جئتك بشيء عجب ينشرح له صدرك، استمع، وفرد الصحيفة وبدأت السمكة التي خرجت من بحرها تقرأ، وإذا لسانها يتلعثم، وإذا النغمة متأبية عليه، هوى الرجل من شاهق ووصل إلى أذن صاحبه مهزوما مهشماً، فلم يتجاوب له ونظر إلى السمكة مندهشا حائراً من تفسير لهفتها وفرط العجب، وأخذ صاحبنا يقلب الورق ليبحث عن الظرف واللطف، وخيل إليه أنهما سقطا منه في الطريق، فكان شاهدا على غير علم منه بأن أزجال بيرم لاتزكو إلا إذا جاشت لغته من قبل عواطف التلقين، إنها ضرب من الفن يحتاج إلى ألفة ودربة قبل أن يتم تذوقه، وعاد إلى بيته مدلدل الأذنين. وقد باخ تحفزه وتثلجت لهفته وإن زاد حبه لأهل بيته وحمده لربه أنه نشأ بينهم.

وظل البيت وفيا لبيرم، باقيا على حبه والإخلاص له، يحزنهم أشد الحزن أن يفلت منهم زجل له، وظلوا يتتبعون أخباره، ويرثون له وهو يتلطم في غربته في فرنسا، ويضحكون معه وهو يروي لهم حكايات ((سيد ومراته في باريس)). ما أشد اعتزازهم باحتفاظهم بأعداد مجلة ((المسلة)) التي كان يصدرها ويعجبون بفضلها بجرأته ووطنيته، وإن ضاق صدرهم قليلاً ببعض ((التلميحات العامية)) الفجة من قولة ((البامية الملوكي والقرع السلطاني)) تحية لمولد ولي العهد، حقاً إن الخط الفاصل بين رقة الذوق وفجاجته في العامية وثيق كالصراط يوم الحشر، وكانت أعز أمنية لهم أن تكتحل عيونهم برؤية بيرم، حبذا الجلوس إليه ولو مرة، أما الاختلاط به ومصادقته فأمل بعيد المنال، لأن فيهم بطبعهم عزوفا من الهجوم على الناس. ورمي الجتت عليهم، أما إذا جاءهم إنسان فأهلا وسهلاً، يعوضون بالإغراق في الحفاوة به والإسراع إلى مصادقته ما فاتهم من الروابط التي عجزوا هم عن توثيقها بجهدهم، ولما جاءهم ذات يوم خبر عودة بيرم لمصر ونجاته من البوليس كان هذا اليوم عندهم يوم عيد، (وبيرم كلمة تركية معناها: العيد وتنطق بفتح الباء وتسكين الياء).

يرجع مرجوعنا، كبر الابن الثالث وبدأ يكتب كلاما في الصحف والمجلات، لم يعجب وإن كان من العجيب أنها قبلت نشره، فتمطع ذات يوم وكتب مقالا يشيد فيه ببيرم وأزجاله، وعده أيضاً إماما في فن القصة القصيرة، إغاظة لمن يكتبونها

بالفصحى، وظهر المقال في مجلة، فتمطع وحزمها وأرسلها بالبريد المسجل إلى بيرم وهو مقيم في باريس، بعد أن حصل على عنوانه من الصحيفة التي ينشر فيها مذكرات ((سيد ومراته في باريس)). كأنه يريد أن يقول له: في مصر إنسان يحبك ويعجب بك ويشيد بفنك ويهمه أن يبلغك هذا الحب وأنت في غربتك. الحقيقة أنه كان يريد أن يقول له قبل كل شيء: انظر! إنني بدأت أكتب! أصبحت أسير في ركابك.

لم يحدث أن قطع نداء من ناشئ لأستاذ ما قطعته هذه المجلة من مسافات عبر البر والبحر، ومع أنه كتب عنوانه تحت إمضائه فإنه لم يتلق رداً. يقول وهو يغالط نفسه أنه لا يطمع أن تصله كلمة تشكر، كل الذي يرجوه سطر واحد يحمل من ((بيرم)) تحية، ليمتد بين الاثنين جسر ولو في الهواء.

ومع ذلك فمن فرط حبه لبيرم لم يحزنه أنه أغضى عنه وأهمله، دون أن يدري أن نفقة إرسال المجلة بالبريد المسجل كلفت المحب نصف مصروفه الشهري.

ومرت شهور، وربما أعوام، ونسي حكاية المقال والمجلة.

وذات يوم ابتسم له الحظ، والتقى ببيرم، فذكره بحكاية المقال والمجلة، أول كلام، أعذره فقد كان لايزال في ميعة الصبا، متلهفاً على شهادة بأدبه تخرجه من الظلام إلى النور.

سأل بيرم: هل وصلته المجلة؟ هل قرأ المقال؟ فإذا به لشدة دهشته لايجد من بيرم شكراً ولا حنانا، بل وجده قد اربد وجهه واغبر وفاجأه بقوله:

- هو أنت؟ الله يخرب بيتك!

ثم روى له أنه كان في باريس يشكو من الجوع. ليس في جيبه من الفرنكات ما يكفي لأكله في يومه. إنه ينتظر على أحر من الجمر أن يصله بالبريد أجر بعض مقالاته. فلما وصله إخطار من البريد أن له عنده طردا مسجلاً هرع إليه كالمجنون. إذن جاء الفرج، وأيقن أن الأمر اختلط على البريد، فالذي وصله ليس طرداً مسجلاً، بل مظروفاً مسجلاً داخله شيك على بنك، وإلا فإن صديقا في مصر قد حن عليه فأرسل له بعض الملابس أو بعض المأكولات. ومنى نفسه بدفء أو شبع، فإذا به يفاجأ بالبريد يطالبه بدفع أرضية لأنه كان قد غير عنوانه أكثر من مرة فلم يصله الإخطار إلا بعد تأخير.

وسأل عن المبلغ المطلوب فإذا به يستنفد كل ما في جيبه. لو دفعه لايبقى فيه

فلس واحد، والجوع باق يحدق فيه، فنسي نفسه وحصافته من شدة اللهفة، ودفع المبلغ فإذا به يستلم طرداً ما كاد بفكه حتى وجد فيه مجلة، قديمة فوق البيعة!

رماها على الأرض من فوره وهو يلعن ويسب من أرسلها له وتسبب في دفعه للغرامة، وهي كل ما يملك!

ثم أنهى روايته وهو يقول: تعلم الآن أنني لم أقرأ مقال حضرتك ياسيدي..

وكانت قد ارتسمت في ذهنه لبيرم - غيبا - صورة رجل ظريف، بحبوح، ابن نكتة، سريع الاقبال على جليسه ويهش له. رجل يكره الغم والنكد، ناج من الأحقاد، لايحب الشكوى، سعيد بالمكانة التي بلغها.. فإذا به لشدة دهشته يجد بيرم حين التقاه على نقيض هذا كله. وجده إنساناً يحب العزلة، من الصنف الذي يكره أن تلمس يد غير يده ذراعه أو كتفه. يطيب له أن يجلس وحده في مقهى بلدي في حي شعبي، منقبضا، مكورا على نفسه. والتكور أيضاً صفة جسده ورسم وجهه. ملامحه تكاد تنطق بأنه يتكتم زمجرة ترتكض في أحشائه، خيل إليه أنه يجز على أسنانه. ولما جلس إليه أحس أنه لا ينتظر منه إلا الحديث المقتضب، كلمة ورد غطاها، ليس له صبر ولا مرارة على اللت والعجن. فإذا تحدث هو لم يكن حديثه إلا عن شكوى من مطربة أكلت حقه، وعن الإذاعة التي أهملت أو بريت له. في صوته نغمة الشكوى من ظلم واقع عليه، وأن حقه مهضوم.

لا يستطيع أن يجزم أن هذا هو طبع بيرم الغالب عليه في جميع حالاته، مع جميع الناس، ولكنه يستطيع أن يشهد أنه هكذا وجده في المرات القليلة التي جلس فيها إليه. ثم صار بعد ذلك يتحاشى اقتحام خلوته، لأنه لم يفلح - كما كان يتمنى - في أن يمد جسراً بينه وبينه، هذه المرة على الأرض لا عبر البر والبحر، ليجد في نهايتها بيرم الذي تغنى بأزجاله مراراً، قارئاً وسامعاً، فكان يسكر طرباً للطفه وخفة دمه.

وظل يتتبعه من بعد، ثم بدأ يضع يده على قلبه خشية أن يغتال تحول ذوق العامية السريع أمام العامية في عصره، فيسبقه الزمن ومصطلحات جديدة توافق عصرا جديدا يقدم بخيله ورجاله وسلطانه وهيلمانه.

(مجلة "المجلة"، العدد ١٣٧، مايو ١٩٦٨، ص ٢-٤)

وجهاً.. لوجه..!!

أول مرة شهدت فيها إنساناً يحتضر أمامي. يكاد فمي يلمس فمه من فرط انحنائي فوقه. أطل على تلك اللحظة المذهلة التي تقلب الحياة فجأة إلى الموت، والـ (أنا) فيمن يلفظ آخر أنفاسه إلى (هو) أبدية. تنقل بقية الوجود إلى عدم، الحركة إلى جمود. تعدد تعبير متجدد إلى شلل قناع على وجه. هل يريد أن يقول لنا شيئاً؟.. هيهات له ولنا. لغته ليست لغتنا. انتهت الصلة بيننا بلا عودة.. تنقل بتة واحدة منطق جميع الفلاسفة في عقد صلح بيننا وبين الكون إلى لغز مستبد لايعرف مخلوق سره.

إنه السر الإلهي لا نملك إزاءه إلا السكوت. ليس في يدنا علاج، ولا طاقة لنا على الفهم. سكوت يجمع بين بلسم الرضا والتسليم بحكمة الله، وجرح حسرة بلهاء مشوبة بشيء من حنق مكتوم نخجل من الجهر به. فالذي يجهر به نراه جن أو كفر.

وقد أريد لي أن يكون أول موت أشهده هو موت مصفى من كل عارض عاطفي قد يزيغ بصري عنه أو يفسد علي الرؤية المباشرة المحايدة. لادخل في نظرتي للذاتية أو المصلحة أو الهوى. لن أكسب شيئاً ولن أخسر شيئاً، فالذي حضرت موته لم يكن من أقربائي أو أحبائي أو أصدقائي، بل كنت لا أعرف اسمه ولا آماله وهمومه، ولا أين يسكن وإلي من يؤوب حين ينقضي سعيه في يومه، فكأنني في معمل كيميائي نجح في عزل ميكروب الموت ووضعه منفصلا تحت المجهر أمامي، بلا طفيليات.

وقد يظن من كلامي - كما يقضي منطقه - أنني حمدت لقدر رحيم أن قسم لي

في التجربة الأولى هذه المواجهة المحايدة فبصرني دون أن يفجعني، ولكن العكس هو الذي أقصده من كلامي، فإن هذه المواجهة كانت لها عندي بسبب هذا الحياد بعينه أثر العنف المزلزل، لأنني رأيتني لا أحضر موت إنسان، بل موت الإنسان.

فأريد لي كذلك أن يكون أول موت أشهده هو موت يعد أبدع مثال على أن الذي يربط الإنسان بالحياة إنما هي شعرة أو هي من خيط العنكبوت، هاهي ذي تنقطع صدفة، ومن حيث لا تنتظر وضد كل منطق وحسبان وتقدير، كأن السخف صفة لا تعرفها الحياة وحدها أحياناً بل يعرفها الموت أيضاً أحياناً، والسخف يليق بالحياة اللعوب ولكنه لا يليق بالموت الجليل. من أجل هذا زاد ذهولي ضعفين.

لم يكن من تلامذة فصلي، بل كنت أراه وقت الفسحة في حوش المدرسة السعيدية (١٩٢٠) أو هو راكب في ناحية أخرى من عربة الترام وأحياناً مشعبطاً على السلم، أصادفه في الإياب عصرا أكثر من الذهاب صباحاً. لم يدر بيننا كلام، ولم نتبادل التحية، ولكنه كان مع ذلك مفروزاً عندي عن بقية زملائي المجهولين غير منضم إلى شلة، تكفيه نفسه، يعتز بكرامته يستوقف نظرتي انفراده بكبسة طربوشه فوق رأسه، كأنما يلبسه لبس عمامة. رأس ضخم يبدو داخل الكبسة كأنه غير مستدير بل مربع كحلقة العمامة.

ما فتنت منذ صغري أفتن بضخامة الرأس واتساع الجبهة وارتفاعها، وحبذا لو كانت مضيئة غير كابية. هي عندي ((دينامو)) جبار أحس احساساً أكيدا بأن تيارات كهربائية خفية تنبعث منه، ومازلت مفتونا رغم الأبحاث التي تفصل بين الذكاء وحجم الرأس. وقررت أن له عقلاً كبيراً وذاكرة قوية، يهضم ما يقرأ أول مرة ولاينساه. وغبطته على حسن حظه. عينان صافيتان يترقرق فيهما الحياء، تريدان أن تضحكا ومنك أن تشاركهما الضحك.. في صمت، وحتى من بعيد لبعيد. نظرة ثابتة غير تائهة ولا مبعثرة، كأن النظر عنده لايعني إلا التأمل. النظرة هي التي جعلتني أقرر أن رأسه الضخم يحوي عقلا هو أيضاً ثابت غير مضطرب ولا مرتبك، له قدرة فائقة على الترتيب والتصنيف وتقديم الأهم على المهم. يتناول كل شيء في أوانه. إذا عكف على عمل لا يقوم عنه إلا إذا أتمه، حتى ولو دق الطبل البلدي الذي لا ينجع شيء سواه في هش الوطاويط اللاصقة بوجه ضحيتها، وأنه إذا قرأ كتابا للمتعة لم يعدل عنه بعد صفحات قليلة لغيره، ثم لغير غيره.

الملل عنده نوع من الدلع والصبر رأس الفضائل.

إذن هي رأس كالزلطة إذا خبطتها في الجدار انكسر الجدار ولم تنكسر هي.

كتفان عريضان وإن كان الجسم قصيراً ـ أشبه ما يكون بمثلث مقلوب القاعدة ـ لاشيء يحمل مثل هذا الرأس الضخم إلا مثل هذين الكتفين العريضين. ربطة عنق مشتراة ولا ريب من على عربة يد أو علاقة في درفة في سوق البواكي بالعتبة الخضراء. بريق على فشوش، ولون لاتضمه (باليت) أي فنان حتى ولو كان من أنصار السيريالية، ومع ذلك كان من الواضح أنه معتز بأناقتها، لأني لم ألمحها قط مزحزحة من تحت ترقوته إلى يمين أو يسار، أو الطية القصيرة التحتانية منفلتة هاربة من تحت الطية الطويلة الفوقانية. عند أغلب زملائي حينئذ ربطة العنق مقص مفتوح.

كل شيء فيه ينتهي إلى أنه من أصل ريفي متقشف، مستور رغم الفقر، ولعل صلابة رأسه الضخم حملني على الاعتقاد بأنه من الصعيد. ولو زاره ((دارون)) لقال إن الضرب بالشوم فوق النافوخ هو الذي أنتج صلابة هذه الرؤوس، وخيل إلي أن جسمه قد ترعرع على طعام عماده البصل والعسل الأسود، وأنه لكثرة إصابته بالأمراض أصبحت له مناعة تغالب أفتك الميكروبات.

جسم خليق بأن يعيش مائة سنة، دون أن يعتم بصره أو يتهتم فكه، وكنت واثقاً أنه سينجح سنة بعد سنة، وأنه في المهنة التي سيختارها سيصبح أستاذاً يلمع اسمه لا إرضاء لنفسه فحسب، بل لأسرة تحتضنه وترقبه وتعلق عليه أكبر الآمال، ستطول به رقبتها في القرية ويعم خيره ويفيض على أهله وعشيرته كلها.

وقبل أن أتم حديثي عن المدرسة دعني أقدم لك كامل أفندي الأزوت، لأنه سيلعب دوراً كبيراً فيما بعد. شاب نحيل ضعيف دائم الارتباك واللهوجة، لاتراه إلا مندفعا من باب يصدمه في الدخول والخروج. يلبس نظارة بلا إطار تحتقر الأذنين وتنشبك بقبضة الأنف بكماشة من ذبابتين، لا يربطها بقيطان إلى عروة سترته، وكان يدهشني أنها رغم اندفاعه لم تسقط قط أو ترتفع فيها كفة عن كفة. هو محضر معمل الكيمياء في المدرسة، وكنا ننظر إليه باستعلاء واستخفاف، فلا هو أستاذ ولا هو تلميذ أو فراش، بل هو شيء بين بين. وكنا نؤمن أنه بلغ ورضي أن يقف في المؤخرة لأنه عاجز عن شق الصفوف. لن تراه في الحلقة الملتفة حول الحاوي إلا واقفاً على الهامش ووراء رجل أطول منه.

وكان أستاذ الكيمياء قد طلب من كامل أفندي ذات يوم أن يعدله الأزوت قبل بدء الحصة. فلما دخل المعمل ونحن معه لم يجده فصرخ مستفهما: ((يا كامل

أفندي.. الأزوت؟..)) منذ تلك اللحظة أصبح اسمه عندنا كامل أفندي الأزوت، وزاد استخفافنا به.

في عز حر صيف وعز المذاكرة.. لم يكن قد بقي على الامتحان إلا أيام معدودات. أجساد التلاميذ وعيونهم ذابلة، مجهدة. الغيطان التي مررنا بها في الصباح ممتدة من كوبري الزمالك إلى الكوبري الأعمى (هكذا كان اسمه) تعلوها شبورة من رطوبة ثقيلة، ومع ذلك لم تخنق بهجتها، بل زادتها سحراً بغموضها. لايملك القلب إزاء جمال الطبيعة إلا أن يسبح بحمد ربه، ثم يبحث عن شعر يحفظه ليرتله سرا. ليس هناك إلا فيلا واحدة صغيرة، هي لشقيق حافظ رمضان، ثم قرية العجوزة كأنها دمل في وجه القاهرة.

في العودة ظهر (إذ كان اليوم يوم خميس) الغيطان تكاد تسقط من شدة القيظ. كل ما تلمسه ساخن حتى خشب مقاعد الترام، بما في ذلك أسفلت كوبري الزمالك، تستطيع أن تقلي فوقه بيضة. كنت راكبا همدانا في آخر مقعد في العربة القاطرة محشوراً بين معارف وأغراب، ظهري إلى ظهر السائق في مقدمتها. وأمامي العربة المقطورة تتأرجح من فوق لتحت ومن يمين إلى يسار وبالعكس.

رأيته واقفاً مزحوماً مشعبطاً على حافة طرف السلم الكنز في مقدمة هذه العربة، قد ثبتت له قدم وبقيت الأخرى طليقة كأنها ملتذة بحريتها في الهواء في كل مطب يضرب الكعب الحر الكعب الثابت ثم يفترق عنه. في لفة ذراعه الأيمن رزمة من الكتب مختلفة الأحجام لابد من ضغطها على ضلوعه ونحو إبطه لئلا تنفرط وتسقط، وذراعه الأيسر ملتف كالحلقة الناقصة حول العمود الحديدي الواصل بين سقف العربة وأرضها، يمسكه به عضة من ثنية كوعه عليه. هذا وضع أشد إراحة له مما لو قبض عليه بيده اليسرى فتلسعها حرارته ويدب فيها الخور بعد قليل (اسألني فقد تشعبطت مثله وفي موقفه مراراً).

في بعض المنعطفات المأخوذة خطفا كانت رزمة الكتب تدور مع جسمه وتصدم وجه جدار العربة الأمامي القصي فيميل ويزيد - وهو يبتسم من ضغطهما على هذا الجدار حتى يملك توازنه إلى أن ينقضي المنعطف ويستقيم الشريط. بيني وبينه أقل من نصف متر. العينان هما رغم الذبول صافيتان يترقرق فيهما الحياء تريدان الضحك، ومنك أن تشاركهما الضحك، التأمل، الفم المطبق على لسان غير ثرثار (إنني لا أذكر شيئاً عن صوته). العزم على المضي رغم الصعاب، على النجاح بأي ثمن. لادلع ولا مدرس خصوصي.

وجئنا إلى كوبري الزمالك. هان المشوار، وزمر الكومساري (ولا يدري أحد أين هو، ولا يدري هو حال النازلين والصاعدين)، وانثنى الترام إلى اليمين ليعبر الكوبري منعطفاً، إذ أخذه خطفا. تمايلنا ضد حركته وصدم بعضنا بعضا بالأكتاف ونحن نسخط ونبتسم معاً.

في لحظة مرت كالبرق رأيت رزمة الكتب تدور يساراً مع قدمه الطليقة لتصدم وجه جدار المقطورة. أصبح جسمه كله معلقاً في الفراغ بين العربتين. دار حول كعبة الثابت. تراخت عضة كوعه على العمود من عضة الجذب إلى اليسار. انقلب العمود من الجزء الناقص من حلقة ذراعه الأيسر. شده نقله كعبه الثابت وأزاحه عن موضعه. لا أنسى منظر اصبعه البنصر في يده اليسرى، يحاول أن يستدير ليقبض على العمود. العمود أضخم من حلقته. كدت أسمع حكة هذا الإصبع! بالحديد. لاشك أن جلده قد تسلخ.

وهوى وغاب عن عيني. تناثرت الكتب كرش الملح، ثم طب، طب. قفزت المقطورة مرتين كأنها هرست ريشة وضعها صبي معابث على الشريط، مرة بالعجلة الأمامية، ومرة بالعجلة الخلفية.

فززان من المقاعد. صراخ. حاسب، حاسب. فرمل فرمل. كل من شاهد مصرعه تكهرب جسده وامتقع لونه. أحسست أن شعر رأسي كاد يقف، فالفروة سخنت فجأة وآلمتني. ونزلنا وجرينا إلى الوراء ربما عشرة أمتار، فإذا هو ملقى على ظهره فوق أسفلت يكاد يغلي. بترت ساقه (لاأذكر أهي اليمنى أم اليسرى) بترا تاما من فوق الفخذ وانفصلت، مطروحة بعيدة عنه، لايزال حذاؤها في القدم، رباط الحذاء غير منحل.

لم يخرج من أحد منا أن يفعل له شيئاً. شلنا الارتباك والذهول، أو قل الخوف، بل الذعر أيضاً. وفجأة برز كامل أفندي الأزوت من وسط الزحام. زايله انمحاؤه وربكته. اتخذ هيئة قائد في معركة. كان أكثرنا ثباتاً وأقلنا اضطراباً. خلع جاكته وألقاها على كتف أحد الواقفين (لعله خشي عليها من التلوث) وأخرج مناديله يحاول بها كتم العروق المتهرئة، يتفجر منها الدم الأحمر في نبضات، ثم طلب منا بلهجة آمرة صارمة، لهجة السيد إلى أتباعه، أن نسعفه بقميص ليعصب به الساق فوق القطع. لازلت أذكر صوت تمزيقه للقماش رغم الضجة، وكنت قد اندفعت فوقه، ربما بتدافع الواقفين ورائي. فمي يكاد يلمس فمه. العينان هما صافيتان. الفم

مطبق. لم يصدر منه أنين ولا توجع ولا آهة أو تنهيدة. لم يجز على أسنانه. شمل الوجه استسلام لا حد له. لم يغب عن وعيه ولكنه لم ينطق بكلمة. أتراه من شدة الهول لم يكن يشعر بأقل ألم. نحن نصرخ من جرح صغير..

لم أنس إلى اليوم نظرته وهي تدور علينا، تنطق بالود وكأنها تقول لنا تعجبوا معي لما حدث. ومع أن نظرتي بقيت مسمرة على وجهه إلا أنها زاغت بعد قليل لاهتمامات حقيرة أخرى. منظر الدم المتجمد فوق الإسفلت الساخن وقد اغمق لونه. ماسورة العظمة المغروزة وسط الجزء الباقي من الفخذ وحافتها المشرشرة. منظر لحم الإنسان من الداخل ولم أكن رأيته من قبل، الحذاء المبتور ورباطه غير المنحل.. منظر كامل أفندي الأزوت، متألم وسعيد معاً.

وقبل أن تأتي عربة الإسعاف تدق جرسها كان قد لفظ آخر أنفاسه واكتسى وجهه بالقناع.

وسرت كعابي لنهاية كوبري بولاق لآخذ ترام الأمام الشافعي إذ كنت أسكن حينئذ في شارع محمد علي.

("المساء"، ١٩٦٤/٨/٣١، ص٨)

الموت

حين يتقدم الليل، تتصنعين الرقاد، هادئة كالعصفور، يأوي متعباً إلى عشه، يضم رأسه إلى جناحيه، ويغمض عينيه، مستسلماً لمشيئة الرحمن، توهمين أهلك وأعزاءك أنك قد أغفيت - وإن كان رقادك على مضض - ليناموا هم بسلام أهب من سباتي مذعوراً، في بهمة الليل، والسكون شامل، وكل ما في الغرفة أشباح غامضة، فأتبين جسدك الرشيق كالطيف الشفاف، وأجدك قائمة، قد انحنى رأسك يكاد يلمس الفراش، إنك تسجدين لله عسى أن يرحمك ويخفف عنك العذاب، تمدين في حذر إلى كوب الماء يدا يكاد خاتم العرس القريب يسقط من اصبعها النحيلة.. فإذا ما تلاقت نظرتنا، تبسمت وعدت إلى رقادك، تظنين أنني لم أسمع أنتك المكتومة.

كنت - لأنك في ميعة الصبا، ورفاهية من العيش توجعين من لسع بعوضة، فتحملت مبضع الجراح يمزق لحمك بغير مخدر. وكنت تتأذين من أهون الدواء، فجرعت أشكالاً و ألواناً من سموم تهد الجبال، وأنت صابرة، وكنت تجفلين من منظر (الحقنة) وتحسبين لها حساباً، فعشت شهوراً طويلة وهذه الإبرة الكريهة تلاحقك وتنغرز في عضلك كل ثلاث ساعات مرة، ليلاً ونهاراً.. بل لقد رأيتها ذات يوم تغوص في مقلتك، وأنت لم تقنطي من رحمة الله. وجاء اليوم الذي اضطرب فيه صدرك، واختنق حلقك، وتلاحق زحيرك، وتلجلج لسانك، فأخذت تسألينني بيدك عن الطبيب متى يأتي؟ فلما همدت اليد أيضاً تشبثت بي عينك تقول: هذه نهاية حياتي! وكان آخر ما انبعث من حلقك بعد ذلك من أصوات هو أول كلامك وأنت في عالم الأرواح.

دب إليك الداء، لا كالحية الرقطاء تغرز أنيابها في حي لتسلها عن ميت، بل كأفعوان هائل قد انعقد في حلقات متشابكة، بعضها فوق بعض، لمسك أول الأمر بذيله فأشلتك اللمسة ونحن لا ندري، فلما اطمأن لعجز فريسته أخذ يتلوى ويتماوج ليخلص رأسه متمهلاً يسيل لعابه، متذوقاً من قبل للذته. إذا رأى منك بادرة هروب لمسك من جديد بذيله لمسة رفيقة، ونحن لا ندري. واقتضته أيام و أسابيع وشهور طويلة لينفث رأسه فيقيمه ويصوب إليك عينين كالجمرتين. ما كان أطول عذابك! أتلوميننا إذا صرخت أنانيتنا اليوم وقلنا: ليتها بقيت مريضة مقعدة، وظلت بيننا أبدا.

وطرق الباب طارق لم يسمعه أحد إلا طفلتها الرضيعة فها هو ضحكها ينقلب نحيبا لا ينقطع أربعة أيام. من القادم؟ أيها الإدراك المكنون في جسم رضيع: انطق ولو أهلكك البوح! ماذا رأيت؟ والطارق صابر بالباب، فلما جاء الإذن دخل علينا، فانبعثت منها رائحة صلصال مبتل. لم تره عيوننا، ولكن أرواحنا شعرت بقدوم ضيف غريب: عليه بشاعة العدم، وجمال الخلقة الكاملة، فيه إشراق الحكمة في ذاتها، واظلام عبث جدواها، نحن أيها القادم لا نعرفك إلا باسم واحد !هو الرعب! أحنينا أمامه الرؤوس، ووقفنا بين يديه جهلة حائرين.. ودار بينهما كلام أشرق له وجهها وطاب حديثها، ورضيت نفسها.

وخرجنا من حيرة الموت إلى حيرة أشد قسوة. حيرة الحياة. كانت قد أرخت لنا قبضتها قليلاً، فسارعت وشدتها بقوة وجبروت على أولاد لها ضعاف حائرين.. أكلنا.. ونمنا.. وبعد أيام تسربت أولى الابتسامات إلى بعض الشفاه الحزينة!.

(مجلة ((الثقافة))، العدد ٣٣٣، ١٥/٥/١٩٤٥، ص١٥)

(٢)
في درب الحياة

مذكرات فنان غشيم في الكار..!

أتابع ذكرياتي عن أول لقاء لي بفن الأوبرا، لا يدفعني على أن أرويها هنا فأتعرض لتهمة التحدث عن النفس إلا أملي في أن تكون ذات نفع لك، والنفع عندي يشمل الابتسام، فلاشك أن الجيل الحاضر من حقه أن يلم بتجارب الجيل الماضي وما لقيه في طريقه من عثرات و أوهام حتى لا تتكرر هذه العثرات وهذه الأوهام، فلعل العظة إن جابت ألف مرة أن تصيب مرة. ولاشك أن من واجب الجيل السابق ألا يكتم الشهادة، فلا نجاة لكل جيل من ألم شعوره بأنه باق متصل الأثر، لأنه يورث الجيل اللاحق أفضل ما عنده، عصارة تجاربه، عسى أن يحقق ماعجز هو عن تحقيقه.

ولايهم الجيل الحاضر أن يعرف عن الجيل السابق كيف كان يأكل ويشرب وماذا كان يلبس، بل لا يهمه أن يعرف ماذا كان يقرأ أو حتى ماذا خلف وماذا كتب، بقدر ما يهمه أن يعرف النمو الروحي لهذا الجيل السابق أن تنكشف له الستار ليرى من ورائه صراع النفوس مع المبادئ والمعتقدات، التحول من الشك إلى اليقين أو من اليقين إلى الشك، تلمس الطريق في الظلام عسى أن تؤدي سراديبه الملتوية إلى مخرج يدل عليه من بعيد بصيص من نور، يومض وينطفئ، تخبط البحث عن مرفأ يعصم من الغرق. راكب الزورق الذي تتقاذفه الأمواج، يقذف بحبل يربطه على وتد يمثل وحده الثبات في عالم مقلقل.

ومن أسف أن هذا النوع من المكاشفة غير معروف عندنا، إن أردنا أن نعرف أحدث مثل له ينبغي أن نقفز إلى الوراء قفزة طويلة لنصل إلى كتاب ((المنقذ من

الضلال))، فإنه ترجمة ذاتية روحية للأمام الغزالي. لم يخجل من الاعتراف لنا فيه بتخبط ضلاله قبل أن يهتدي إلى مذهب يؤمن به.

أما نحن فنتحرج اليوم من التحدث عن زيغ لنا سابق، حتى بعد أن نتوب إلى الرشد فنندم وتصدق توبتنا، نخشى الاعتراف بالضلال الذي خضناه من قبل الوصول إلى نور الهداية.

لم يخجل الكاتب اليوناني كازانزاكس ـ وأغلب الظن أن جائزة نوبل كانت ستمنح له لو امتد به العمر ـ أن يروي في كتابه الفذ ((رسالة إلى الجريكو)) قصة تخبط روحه في البحث عن عقيدة.

وإذا كانت ذكرياتي التي أرويها هنا لا ترتفع إلى هذه القمة الأوليمبية، فإنها ـ رغم تواضعها وقلة خطرها ـ تنبع من نفس الرغبة في أن يكشف الجيل السابق عن تجاربه لينتفع بها الجيل الحاضر.

رويت لك في مقال سابق خط سيري من القاهرة إلى جدة ثم إلى استانبول. وقد تفضلت وزارة الخارجية فنقلتني بعد تركيا إلى إيطاليا، فكان هذا أول لقاء لي بالحضارة الغربية. ومن حسن حظي، أن هذا اللقاء الأول لم يتأخر فلا يلحقني إلا وأنا شيخ متبلد الذهن، عاجز عن التأثر والاستيعاب، ففي سنة ١٩٣٤ وصلت إلى روما ـ عاصمة الرينسانس، ديار ميخائيل أنجيلو ورفائيل، موطن داتني وجاليليو، بلد فراي وروسيني وبوتشيني، حتى ماسكاني كان لايزال على قيد الحياة.

وكنت قبل وصولي إلى روما قد قرأت عن الحضارة الغربية وفنونها وآدابها حتى كدت أتلف مقلتي. دراسة كبار الرسامين في صور لهم في الكتب لا في المتاحف، وكذلك إن فاتني طول الاستماع إلى الكونسير إلى الكونسيرتات والأوبرات ـ حتى عن طريق الاسطوانات فإني كنت أوشك أن أعرف كل شيء عن حياة كبار الملحنين في تاريخ الموسيقى. أعرف أسماء أعمالهم وظروف تأليفها. كنت خبيراً في الرسم وأنا أعمى، وخبيراً في الموسيقى وأنا أصم.

كنت ((ريدزدايجست)) لمكتبة كبيرة، لا أزيد أنا الآخر عن أن أكون كتاباً ـ في حجم كتاب الجيب ـ مدفوناً في مخزن مظلم لا يرى النور، وفي بطنه علم كثير. وكان خيراً لي ـ وهذا شيء لم أدركه إلا فيما بعد ـ أن أقرأ نصف أو حتى ربع ما قرأت ثم أذهب إلى المتاحف وأستمع إلى الموسيقى ضعف ذهابي واستماعي.

وكان قد بقي في نفسي من هذه القراءة أثر الرحلة إلى روما على الشعراء

الرومانسيين الانجليز، بيرون وكيتس وشيلي، وكيف أن آلهة الشمس جادت لهم بخير ما عندها على شاطئ خليج نابولي، بين إشراق النور وزرقة البحر وصفاء السماء. ما أبعد بهجة هذه الألوان عن كآبة ألوان بلدهم انجلترا، تراب الفحم يهبط على مدن ضائعة في الضباب، يجري فيها الناس كالأشباح الضالة، وأجسادهم ترتجف من شدة البرد.

وعرفت كذلك أثر الرحلة إلى روما على جوته، فقد كان اجتيازه لجبال الألب من الشمال إلى الجنوب حدا فاصلاً في حياته بين الضباب والنور، الغموض والوضوح، بين الهمجية والحضارة.

فكان يخيل لي قبل وصولي أنني إذا حللت بروما سأسجد على الأرض لألثمها، وأتمسح بأعمدة كنيسة بطرس وأرقد على سلم الأوبرا.

ولكن عبثا بحثت عن هزة قلبي، عن أثر لانبهاري.. وجدت أن النور في جو روما إن لم يساو فهو لايزيد عن النور في جو بلدي الذي لايعرف الضباب.

شتان في الرحلة إلى روما بين رجل يجيئها من الشمال ومعه تركة ثقيلة من مخلفات همجية، قبائل الفاندال والفيونيون والفايكنج، وأحزابهم، وبين رجل يجيئها من الجنوب، هو من أبناء الشرق، في جعبته كنز ثمين من حضارة كانت لا تقل عن حضارة أوربا، ومن ثقافة إن اختلفت عن ثقافتها فهي لا تقل عنها شمولاً ولا قدرة على التملك وعلى إثارة الإعجاب والولاء.

ومع ذلك لم أجهل أني قادم من بلد متخلف، سبقه الزمن شوطاً طويلاً، فكان من الواجب علي أن أجري لألحقه، حتى إذا ساويته استطعت أن أنفصل وأشق طريقي مستقلاً عنه، وإذا أخذت منه فسأعلم أنني سأعطيه المقابل.

وبدأت أتعلم لأول مرة - بالاستماع والنظر - لا بالقراءة، فأدخل المتاحف وأغشى الأوبرا وحفلات الكونسير، مواظباً كأنني تلميذ يطمع في جائزة ((حسن السير والسلوك)).

ولا أكتمك أيضاً أنني اندفعت في هذا التتلمذ لأنني أنفت أن أجلس في المآدب الرسمية بجوار سيدة جميلة مثقفة فتجدني لا أحسن الكلام إلا في الأكل والطبيخ وآخر الأفلام، فإذا أدارت وجهها عني والتفتت أغلب الوقت إلى جارها في الجانب الآخر، وكان انجليزياً أو فرنسياً أو ألمانياً، دار الحديث عن المعارض والكونسيرات.. إني أقترح على وزارة الخارجية أن تجعل النجاح في الامتحان عن

تاريخ الفنون الجميلة شرطاً أساسياً لدخول السلك الدبلوماسي والقنصلي.. سينتقل مبعوثوها ـ بفضل هذا النجاح من مرتبة ((موظف)) إلى مرتبة ((بني آدم)).

رأيت كيف وصلت إلى روما وأنا مشقف وغشيم في الكار معاً، وقد بدا اعتدادي بأنني موظف قد الدنيا في غشوميتي في بحثي عن سكن. أبى لي السلك الدبلوماسي والقنصلي إلا أن أبحث عن شقة مفروشة في عمارة حديثة مبنية بالإسمنت المسلح على طراز ((نوفي شنتو)) (١٩٠٠) في أحدث أحياء روما، كان من قبل أرضا خلوية في أطراف المدينة، مثل أرض مدينة نصر في القاهرة مثلاً. وقيل لي في وصف هذه الشقة إنها لوكس لا لشيء إلا لأن بها حماماً وتدفئة مركزية بأنابيب المياه، ولأن الأثاث من طراز ((نوفي شنتو)) أيضاً، خطوط وزوايا قائمة وأرجل كل منضدة مفرشحة مودرن جداً.

وتحملت في سبيل الأبهة ما لهذه العمارة الحديثة من مقدرة فائقة على توصيل الصوت، كنت أسكن في الدور الثالث فإذا لعب طفل بالبلي على سطح العمارة ـ وهي من عشرة أدوار ـ سمعت خبطة البلية في البلية ترن في أذني. وكنت أعجب كيف يمكن أن تقال في هذه العمارة كلمة وتبقى سراً.

ولم أدرك فقر ثقافتي واحساسي الفني إلا بعد أن خالطت قرنائي الإنجليز والألمان والأمريكان. وجدتهم جميعاً يصدون عن الأحياء الحديثة ولا يبحثون لهم عن سكن إلا في الأحياء التاريخية القديمة، وسط الأزقة الضيقة، والدخول إلى الدار من تحت بوابات عتيقة، ليس في البيت مصعد لأنه من دورين وعلو درجة السلم نصف متر، وبير السلم ظلام كالكحل، وإذا دخلت الردهة لم تجد إلا مدفأة مفتوحة ليشعل بها حطب فروع الشجر الغليظة. وأمام المدفأة ـ عن يمين ويسار ـ كرسيان عتيقان. هذا كل الأثاث. على رف المدفأة بعض خزف الأوترسك. وعلى الجدار لوحة من القرن الخامس عشر (هكذا يقال). هذه هي روما التي يحبونها. روما مصدر ثقافتهم، فليس إلا في مثل هذه الدور ترتاح نفوسهم. أما الأحياء الحديثة فيتركونها للغشم أمثالي.

صاحب هذه الشقة بارون أو مركيز إيطالي مفلس، في إصبع يده خاتم ثمين موروث عن كاردينال. والشقة والخاتم واللقب حجارة ودع تفرش على الأرض بأمل اصطياد عروس غنية من بلاد الدولار.

("المساء"، ١٩٦٤/٢/٢٤، ص٨)

الزهرة والأصيص...

كنت لا أعود إلى الوطن أثناء عملي بالسلك الدبلوماسي إلا في إجازة قصيرة مرة كل سنتين أو ثلاث، فكان أول شيء أفعله بعد أن أنفض غبار السفر، وقبل أن أزور أخوتي، أن أذهب إلى بيتها في الحلمية الجديدة، أن أحج إليها، لأجلس بين يديها في الصالون المريح المكنون الذي لم يتبدل فيه شيء مدى أربعين عاماً. المقاعد هي هي في أماكنها هي هي. فترات الصمت بيننا أطول من فترات الكلام، ويبارك لنا في هذا الصمت أن زوجها لايشارك في الحديث إلا بابتسامة تجمع بين أذنيه، تشق وجهه الوردي المستدير في رأسه المكور الفاحم الشعر.

لست بالغريب عن الدار حتى تفسد عليه زيارتي بحبحته في جلبابه السكروتة المهفهف. هو ابن ذوات من حي سيدنا الحسين وإن كان يتقن الفرنسية كأحد أبنائها.. ثم أقدم لها زجاجة العطر الذي تحبه فلا تشكرني بكلمة، فلا يزال من حق الست الستوتة أن تتقبل هدايا عيالها كأنها قربان، ولكن نظرتينا - وهما تبتسمان كتما - تتقابلان خطفا، فإذا المخطوف هو عمري كله منذ طفولتي. من نظرتها يقطر الحنو والاعتزاز، وأعلم أن نظرتي تتمتم بالود والإعزاز. هي المعطية وأنا المتلقي. وتصمت على حين أن زوجها يقلب الزجاجة كأنها من العجائب التي لم يرها من قبل ولا تفوته مع ذلك كلمة أو إشارة رمزية في حديثنا المتقطع.

وعدت آخر مرة بعد غيبة طالت ست سنوات، وذهبت إليها ثم خرجت - وزوجها يصحبني عبر الحديقة الصغيرة حتى الباب - وأنا حزين منكسر القلب.

هذه الطفلة الشقراء ـ أم الضفيرتين، النظيفة الملبس.. جورب للركبة أبيض ناصع، وحذاء قصير أسود لامع، تجللها ((الستوتية)) من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. إن تكن واحدة منا نحن أطفال الحي الذين يلعبون في الشارع أمام البيوت فإنها أصبحت منذ أول يوم لها معنا ـ دون أن ترشح نفسها أو يجري انتخاب ـ ست الستات عند الشلة. ربما كانت أصغر منا سناً، لكنها كانت لنا جميعاً أختنا الكبرى، بل اعزازنا لها يفوق اعزازنا لأخواتنا الشقيقات.. أكبر سعادة لنا أن تقنع بالجلوس على دكة البواب وتراقب هي لعبنا. لا طعم للذة والغلبة إلا على مرأى منها. وهي ((الأم)) في ((الاستغماية)). عندها نودع ما كسبناه من البلى الملون والرصاص إذا ضاقت به جيوبنا. هي التي تقرر إذا كان الجون ((محسوباً أوغير محسوب)).

لابأس عندنا أن تقوم أحياناً لتشارك في نط الحبل، بمفردها أو بين اثنتين تتوليان ترقيصها، لتسحرنا برشاقتها الهوائي، أو لعبة ((الرشتة)) فلا يكون بين الأخريات من هي أبرع منها وأخف قفزاً على قدم واحدة أو إحكاماً في زحزحة الطوبة من خانة إلى خانة، فإذا استراحت في ((الخانة الرابعة)) وضعت يديها في وسطها ((وشنت)) دون أن تستعين بمنديلها، وهذا هو عيبها الوحيد، فارتعشت أرنبة أنفها، إذ كان لها أنف دقيقة شماء مجذوبة المنخرين إلى أعلى قليلاً.

تشارك في اللعب تنازلا منها، كأنما لكي ترى بقية البنات كيف يكون نط الحبل وأصول الرشتة. قد نتعارك نحن الأطفال فيما بيننا، ونشد بعض البنات من الشعر أو نوقعهن أرضاً أو نزغدهن ونزعق في وجوههن، لكن هيهات لأحد منا أن يلمس ست البنات باصبعه أو يرفع في مخاطبتها صوته. كانت تمثل كل ما في قلوبنا الصغيرة من حماسة غامضة وتلهف مبهم للدفاع عن حرم مقدس جميل لا ندري ما هو.

ثم قبيل الغروب يطلع علينا بائع الجيلاتي التركي القزم، عم سوسو، ينفخ في بوق صغير، فنتحلق حوله، ويشتري كل منا قمعاً، ثم نتفرق وندخل بيوتنا.. نفخ هذا البوق لايزال يرن في أذني إلى اليوم بعد أن جاوزت الستين.

ودخلنا المدارس الثانوية، هنا وهناك، ولبسنا البنطلون الطويل، وانقطع اللعب أمام البيوت، واحتجبت ست البنات عنا. ولكن جميع الأسر في هذا الشارع تتعارف وتتزاور ومعها الأولاد وإن كبروا، فكنا نحس أن الشلة لم تنفض، وأن ست الستات، واسطة العقد، هناك وراء هذه النافذة في هذا البيت. فاق طولها طولنا. فتاة حلوة

في ميعة الصبا، من حقها اللهو والعفرتة ولكن الستوتية ظلت تجللها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

وكبرنا، وأصبح فينا المحامي والطبيب والملحق الدبلوماسي، وتزوج بعض أولاد الحي من بعض بنات الحي، ولكن أحداً منا لم يتقدم لخطبة ست الستات. قد تقول: هذا منطق غير معقول ولا مبرر ونتيجة غير متوقعة، ولكن ثق أن هذا هو الذي حدث. أنا لا أعرف السبب فتفلسف أنت كما تريد. قل إنها كانت لا تزال في نظرنا هي أبداً شيئاً مقدساً أبعد من منالنا. قل إننا كنا نخلط في ذلك الوقت بين الجنس والتلوث، أو على الأقل بين الجنس والامتهان، وكان لها في قلوبنا إعزاز وتوقير لا حد لهما.

وعلمنا ذات يوم أنها تزوجت من شاب ابن ذوات من حي الحسين. لقد أحسسنا حينئذ وحسب بمقدار خسارتنا وحماقتنا. قلوبنا توجعت بأنين خافت، ثم محونا ذلك كله بافتعال اشتياق لرؤية الزوج، فوجدناه شاباً بديناً، له رأس مكور، ووجه مستدير وردي، شعره كث قصير أسود كالفحم، لايحب الكلام، بل يشارك في الحديث بابتسامة تجمع أذنيه وتشق وجهه. أحسسنا أنه إنسان ابن أصل، طيب القلب جداً، وأنه سيكون لست الستات نعم التابع المطيع فاسترحنا، لأن شخصيته لن تطغى على شخصيتها.

وكان زواجها بمثابة عودة بعد انقطاع طويل لنفخ بوق بائع الجيلاتي التركي القزم. فكما كانت عربته تجمعنا حولها، أصبح بيتها يجمع الشلة بعد تفرقها. بحثت عنا واحداً واحداً ودعتنا إلى بيتها، وفتحت لنا صالونها. عندها تنفض المنازعات وتصفو القلوب. التأمت الشلة في هذا الصالون الذي لم يتبدل فيه شيء مدى خمسين عاماً. لم يتغير أيضاً دارها، ولكن زياراتي المتقطعة - ربما - هي التي جعلتني أقدر الجميع على ملاحظة هبوطها سلم الحياة درجة درجة.

بعد زمن هو في الحساب طويل، وهو عندي كغمضة عين، كيف يارب أصبحت ست الستات الحلوة الفتية هذه المرأة المحطمة. لا أظن أن السبب هو سلسلة الأمراض التي مرت بها. في قلبي شك أن زوجها ابن الذوات لم يفلح إلا في تبديد ما كانت تملكه، بكسله لا بعدوانه.

في آخر زيارة لي دخلت علي في ثوب ذي كمين طويلين وصف أزرار من أمام، تتوكأ على ذراع زوجها وهي ترمقه بحنان وتشكره بريق حلو. أحياناً تتوكأ الدادة

العجوز على الطفل، هكذا رأيتها. جلست على المقعد بصعوبة، وتناولت الزجاجة مني بيد مرتعشة. تتكلم قليلاً ثم تلهث. الشعر الكستنائي أصبح نحيلاً، خالطه المشيب. سألتني عن بقية الشلة واحدا واحدا واحداً. فأدركت أن زيارتهم لها قد قلت، الدنيا تلاهي. وانسرقت نظرة مني إلى زوجها، فإذا هو لايزال شاباً بديناً، وجه مستدير وردي، ورأس مكور، وابتسامة تجمع أذنيه وتشق وجهه. لم تبيض في رأسه شعرة واحدة.

ولما خرجت للشارع أدركت أيضاً - وربما لأول مرة - أن حي الحلمية الجديدة قد تبدل وجها بوجه وأقواما بأقوام. أحسست أنني انتهيت من تقليب ألبوم حتى وصلت إلى ورقته الأخيرة، فقفلت غلافه السميك.. مشيت وأنا أصيخ السمع أنتظر أن يأتيني ولو من بعيد صوت نفخ بوق صغير إذ كانت الشمس قد آذنت بمغيب.

("التعاون"، العدد ١٨٥، ١٩٦٦/٩/٤، ص٨)

اعترافات.. ومضايقات.

لا أجهل أن كل إفضاء بأسرار النفس لا يبرأ من ضعف وسخف واشتهاء ذليل لصب الهموم على رأس المستمع، ولا يسلم من رغبة مريضة في لفت الأنظار ولو بالتعري، وطلب تبرير النقيصة إلى استجداء الثناء عليها، باعتبارها مظهراً لإرادة مستقلة تأبى التقيد بسلاسل قافلة الأسرى الطائعين. ومع ذلك ألحت على نفسي اليوم - وهي كعهدها أمارة بالسوء - أن أحدثك عن بعض أسراري، فلم أقو على مقاومتها - شأني معها دائماً - ولعلك لا تعلم أن نشأت في عصر كان يحب الاعترافات، ومن أوائل الكتب التي قرأتها في صباي بالإنجليزية ((اعترافات آكل أفيون))، وبالعربية ((اعترافات عربجي حنطور)) و ((اعترافات مومس)).. إلخ.. إلخ.. ولا أدري تعليلا لاختفاء هذا اللون من الكتب في الوقت الحاضر. ربما كانت القصة هي التي قتلته، أو لعله لقي مصرعه على يد باب ((اسألوني)) في الصحف والمجلات. وإني أتمنى أن أبعث هذا اللون من قبره وأضع كتاباً ((اعترافات قصصي))، يكون هذا المقال أول فصوله.

***

لا أزعم لنفسي قدرة على التنبؤ، ولو تخيلت ثم خلت لكانت قراءة نشرة الأرصاد الجوية شافية لي وحدها من حماقتي، فلم يكن إذن التنبؤ في مطلع حياتي بما يحدث لي الآن في شيخوختي هو سبب احجامي حينئذ عن نشر أوائل قصصي إلا بأسماء مستعارة، وعمدت زيادة في التضليل إلى سرعة التنقل بين رموز مختلفة لا

رابطة بينها، فكتبت مرة باسم ((لبيب)) وهو اسم لصديق أحبه، وتلميح من بعيد بأنني - يا للغرور - أفهم بالإشارة، ومرة بإمضاء ((قصير)) مبالغة في السخرية بنفسي وإن أضمرت أملاً في أن يفسرها بعض القراء بأنها تجديد لذكرى ((قصير)) داهية العرب الذي قال في قصة الزباء: ((لو كان يطاع لقصير أمر)) فذهبت مثلاً، ومرة بإمضاء ((عبد الرحمن بن حسن)) حين كنت أهيم بالجبرتي، ومرة بإمضاء ((عابر سبيل))، فقد كانت هذه صفتي في الحياة حينئذ، وربما الآن أيضاً، واكتفيت مراراً بالحرف الأول من اسمي، ثم كنت أشتط في إرهاق أصفار المطبعة فأتبع حرف الياء بسطر يكاد يكون كاملاً من نقط متتالية، كأني أعوض ما فاتني في الطول، ومرة باسم ((أبو نهى)) وهو كنيتي بعد أن رزقت بالولد. وآخر هذا العبث كان إمضاء ((شاكر فضل الله)) وهي الحكمة التي تكتب وغيرها من أمثالها على المقاعد العربية المطعمة بالصدف، والتي تقول بخط جميل ((القناعة كنز لا يفنى))، وكان هذا مقعدي المفضل في بيت صديق بدأت أخالطه، وإن لم أنعم فوقه براحة وبقية ساقي مدلدلتين أمامه، ولكني كنت أجد شيئاً من البركة حين تتمسح كفاي حتى تتضمخا بعطر هذه الحكمة.

فعلت هذا لأني كنت أؤمن في تلك العهود كلها أن الكاتب يكفيه أن يقحم رأيه على قرائه، فينبغي أن يتورع بعدئذ من أن يقحم عليه نفسه فوق البيعة، أو قل لعلي توهمت أن وراء التستر حرية تتيح لي أن أخوض كما أشاء في سيرة أصدقائي، أو أنبش عش زنابير دون أن يسيح دمي. سمها إن شئت - كما أزعم - تواضعا وحكمة، وسمها - إن شئت - جبنا وقلة وثوق بالنفس، ولكن الحقيقة أيضاً أنني كنت أتشهى تذوق لذة عجيبة، أن أكون في مجتمع من الناس، آمل أن يكون بينهم واحد - واحد وحيد على الأقل - قد قرأ ما كتبت، فيثير الحديث حوله ومن لا يعلمون أنني أنا المجرم أو البطل فيفتحون باب قلوبهم على مصراعيه، وأستمع إلى رأي صريح بلا مجاملة، فإن كان مدحاً أرضاني مرتين، وإن كان ذماً جعلت أذناً من طين و أذناً من عجين وكفى الله المؤمنين القتال.

والغريب أنني رغم طول تلهفي على نوال هذه اللذة لم أظفر بها مرة واحدة. الظاهر أني كنت أخالط أناساً لا يقرؤون، أو يقرؤون كل شيء إلا ما أكتب، أو أنني كنت أكتب في صحف ومجلات بلغ من عار بوارها أن أصبحت سرية.

وقد ضقت مرة بطول خيبتي وإخفاقي فزل لساني في مجتمع ذات يوم وسألت

الحاضرين وسط الحديث عرضاً، وأنا أتصنع التعابط: ((هل قرأتم مقالاً بإمضاء كذا في صحيفة كذا؟))، وكان هو آخر مقال لي. وكنت أظن أنني أحسنت المكر، فإذا بي أجدهم - لشدة دهشتي - قد أدركوا على الفور أنني كاتب هذا المقال.

الظاهر أنني لا أحسن الكذب، أو لعل المثل القائل ((من كانت على رأسه بطحة يحسس عليها)) هو الذي هداهم إلى السر. وكان من سوء حظي أن ذلك المقال هو أسخف ما كتبت، فانهالوا علي توبيخا وتقريعاً، فتبت من ذلك اليوم عن العودة لمثل هذه الحماقة وألجمت لساني وضاعت علي إلى الأبد هذه اللذة التي جريت وراءها طويلاً.

والغالب أني تعبت من هذا التستر، أو قل مللته لطول صحبته، وربما اشتقت للشعور حين تقدم بي العمر أن تمضي سيرتي كلها ملخصة في ثلاث كلمات ((صرخة في واد))، فكشفت عن نفسي فإذا بي على غير ما أنتظر أقع في متاعب عجيبة لا قبل لي بها، بحيث أصبحت أترحم على أيام أسمائي المستعارة، فقد كنت بها أكثر سعادة.

***

أول المتاعب هذه الحيرة الشديدة إزاء ملاحقة الناس لي - أصدقاء وغرباء - بآراء شديدة التناقض. يقول لي واحد عن قصة أنشرها: ((إياك أن تعدل عن هذا اللون، شيء بديع وحاجة عظيمة)). فأشك في ذكائه قليلاً. وهذا آخر يقول لي عنها: ((لم أفهم كلمة واحدة. ماذا تريد أن تقول؟ ينبغي أن تعدل عن هذا اللون إلى غيره، وتكتب كبقية زملائك الناجحين عن الحب والمراهقات، هذه هي بضاعة اليوم)).

وأظل بعد ذلك أياماً تسمع أذني اليمنى وسوسة من اليسار تقول: ((اعدل عن هذا اللون))، وتسمع أذني اليسرى وشوشة من اليمين تقول: ((إياك أن تعدل عن هذا اللون))، فإذا أمسكت بالقلم تلجلجت طويلاً ولا أفلح في خط كلمة واحدة إلا إذا نسيت الاثنتين معاً. ومع ذلك يظل نقد ثاني الفارسين ينخر في قلبي، فأتعمد السهولة والبساطة على خلاف طبعي، فإذا به هو الذي يكلمني بالتليفون على الريق ويقول لي: ((برضه مش فاهم)). أكاد أراه يطلع لي لسانه.

أما الفارس الأول فيكتمها في قلبه حتى يلقاني ليقول ولو بعد مضي ستة شهور إنها قصة تؤذن بتدهوري وخيابتي.

إن إرضاء الناس جميعاً من رابع المستحيلات، يأتي قبل الغول والعنقاء والخل الوفي.

***

وأصبحت كذلك إذا كتبت قصة أجعلها وليدة الخيال وحده إلا وخرج لي إنسان (لأجمع بين الرجل والمرأة) يقول لي:

ـ ألا تستحي أن تصفني بهذا الوصف القبيح، وتشنع بي علناً؟ خلق الله كلهم بين يديك فلماذا جاءت قرعتك علي؟ هل أنت قصصي أم جاسوس أم بطل عالمي في الغيبة؟

ثم يقاطعني ويدير دعايته بتقبيح سيرتي والإزراء بأدبي محذراً بقية الناس مني. حتى فكرت أن أعدل إلى كتابة قصص تدور على ألسنة الحيوان تقليداً لكليلة ودمنة. وحتى لو فعلت هذا لما سلمت ـ فيما أظن ـ من إنسان يعلن أني قصدته حين وصفت الثور ((شترية)). سأكتب عن الأسود والفيلة والطواويس وحدها.

لكن الأدهى من ذلك كله أنني وجدت أغلب الناس الذين أعاشرهم عن مودة قديمة أو حديثة قد انقلبوا فجأة إلى ((متعهدي توريد مواضيع قصص بالمجان ولوجه الله)). هم كل واحد منهم إذا قابلني أن يروي لي من باب للطاق حكاية سخيفة ثم يضيف:

ـ ألا تصلح بذمتك موضوع قصة هائلة؟ لماذا لا تكتبها؟

طبعاً هذا الصديق المتطوع يخفي العزم على التنديد بي إذا كتبت هذه القصة قائلاً إنني سرقتها خلسة من حضرته.

هذا التطوع شائع بين كثير من الناس، يظنون في أنفسهم خفة الدم وهم ثقلاء جداً، بل هم من الغرور بحيث يؤمنون أن كتابة القصة عبث لايليق بكرامتهم فيخلعونه على الحمقى أمثالي مدا لهم في غيهم السخيف.

تصور أنني اضطررت أخيراً أن أهرب من الحلاق الذي أتزين عنده منذ صغري، ومنذ أسمائي المستعارة، رغم أنني أستريح لرقة لمسته وهو يلكز رأسي ليجعلني أطأطئ البصلة لينكشف له قفاي عن آخره. أو لا يعلم أن ثورة أعصابي حينئذ تبلغ ذروتها؟

أتدري لماذا هربت؟ لأنه بدأ أيضاً يقترح علي موضوعات لقصصي.

وجاء علي زمن أصبحت فيه لا أقوى على دخول داري إذا رجعت آخر الليل إلا بعد أن أحك على بلاط السلم كل ما علق بجعبتي من هذه الحكايات كما يحك العائد من ليلة مطيرة حذاءه على الممسحة الليف أمام الباب. (على فكرة: لماذا اختفت هذه الممسحة في أيامنا هذه؟).

***

والألعن من هذا كله.. رجل لا أعرفه، أقابله في مكتب حكومي في شغلة، ويكون قد سمع باسمي ولا أدري أين. فأراه يترك المسألة التي جئته من أجلها ويقبل علي متعطفاً ودوداً وهو يقول: ((أنا مبسوط يا أستاذ من قصتك المسلسلة)). ولم أكتب عمري قصة مسلسلة، أو يقول إنه معجب بكتابي الأخير، فإذا نكشته تبين لي أنه لم يقرأه.

وآخر الدواهي رجل قال لي أخيراً وهو يمدحني بلا سبب ولا غنم:

- إنك رجل تقدمي، ولكن هل كتبت شيئاً بعد ((المبة الست نفيسة))؟

يشير إلى قصة كتبتها منذ أكثر من عشرين عاماً باسم ((قنديل أم هاشم)).

خرجت من عنده وأنا أكاد ألطم الخدين.

("المساء"، ١٩٦١/١١/٦، ص٨)

من ٣٧,٥ إلى ٤٠ْ..!

بارك الله فيمن انتفع ونفع، فأنا أحب لك أن تنتفع بتجربتي، ولست أضمن لك مفعولها مائة في المائة، فالناس تختلف. إذا كنت مثلي من المصابين بهوس القراءة، لا تستطيع أن ترفع بصرك عن كتاب - أي كتاب - إلا إذا كنت - على سبيل الحصر - نائماً أو سائراً أو منشغلاً بتناول الطعام. أقول على سبيل ((الحصر)) لكي يسري الحكم على أماكن قد تخجل من الاعتراف بأنك تقرأ فيها، وعلى أوقات يتهمك فيها الأصدقاء بالجليطة وقلة الحياء، لأنك تحدثهم وتقرأ في آن واحد.

وإذا كنت مثلي لا تفسر المرض إلا بأنه فرصة بديعة تتيح لك أن تدلع نفسك وتتدلع على أهلك. تقول كل خمس دقائق أغلقوا النافذة إذا كانت مفتوحة، أو افتحوا النافذة إذا كانت مغلقة. وتقول كل ساعة: اعملوا لي كوبا من الليمون. وتقول كل ساعتين: أين البودرة؟ غيروا لي الفانلة وملاية السرير ووش المخدة. أين الكولونيا؟ وتقول ساعة الغداء: أين الدجاجة المسلوقة؟ و إذا حل العشاء هل اشتريتم التفاح؟

وجع الدماغ فرصة بديعة للهرب من كل شيء يدعو إلى وجع الدماغ. فما تطل مشكلة برأسها إلا قلت: عن إذنكم أنا تعبت قليلاً وأريد أن أستريح. نلت ما تريد دون لوم أو تقريع. جميع المطالب المالية مؤجلة، همها وقع على أكتاف غيرك.

إذا ضممت مثلي هوس القراءة ودلع المرضى وسألتني: ماذا أقرأ وأنا مريض، أجبتك من واقع بتجربتي هكذا:

من ٥ ,٣٧ إلى ٣٨

ثق أن الصحف اليومية لن تسليك، بل ستصيبك بإرهاق شديد، والبركة أيضاً في الحروف الجديدة المكعبرة المنمنمة. كل مشاكل العالم ستبدو لك تافهة تتضاءل بجانب مرضك الضئيل الذي تحب أن يتضخم فيتضخم. يخيل إليك أنك قرأت الكلام ذاته أكثر من مرة، وستشعر، لأنك تتنفس بضعف ـ هكذا تزعم ـ أن كتاب اليوميات يحزقون حزقاً شديداً، وأن عملهم عكس للمنطق. إنهم يصبون في المطبعة كستباناً من العصير فتخرج لك من الطرف الآخر مصاحبة لبشة قصب تعرش حولك وتلم عليك ذباب الأرض كله. ستجد الكلام مجرد شقشقة، وأن الخوف من الحرب حكاية قديمة قد باخت وشاخت وحقت إحالتها على المعاش، وأن لا ضير عليك من إغفال الإطلاع على آخر أخبار مؤتمر جنيف.. نم وقم، وقم ونم كما تشاء ويشاء المرض حتى ولو امتد السنين الطوال، فإنك ستجده منعقداً عند شفائك. كم أتمنى أن أشتغل مندوباً في مؤتمر جنيف! أما البواب الذي قتل سيدته الفردانية فأنت تعرفه منذ كنت صبياً صغيراً.

ثم أنت يا أخي لست قارئ صحف فحسب، بل أنت في الأصل وفي الصميم قارئ كتاب ـ أي كتاب ـ لذلك أنصحك أن تنتهز الفرصة وتقرأ الروايات النهرية الطويلة التي لم تجد من قبل وسط مشاغلك وقتاً لتجرعها. خذ ثلاثية نجيب محفوظ أو ((الأرض)) للشرقاوي، أو ((الساقية)) للصاوي وكيل الوزارة، أو ((الرجل الذي فقد ظله)) لغانم.

لست أريد أن أفاضل بينهم، أو أن أدبج مقالاً في النقد، ولكني لو كتبت لك الروشتة لما ضمنتها إلا الدواء الذي جربته أنا ونفعني وقلت فيها: جرعة كبيرة من ثلاثة نجيب محفوظ على الريق وبين كل أكلة وأكلة ـ أحتفظ بزجاجة الدواء تحت المخدة، فهي التي احتملتها وهي التي أسعدتني، بل إني أشكر المرض الذي أتاح لي قراءتها. إنه كان من بين جميع أمراضي أخفها دماً، لأنه أقلها عداء للفن.

وجدت أكبر راحة لأعصابي وبدني وذهني في هذا الأسلوب التقريري البديع الذي يدني جميع السماوات إلى مستوى يدك حتى تستطيع أن تلمسها دون أي مجهود منك ودون أن تصاب روحك برجة عنيفة مزلزلة. حتى الدموع التي ذرفتها وأنا أصحب ((الست أمينة)) إلى بيت أمها بعد طلاقها، وأنا أسير مع ((كمال)) وراء نعش لا يعلم أنه يضم حبيبة عمره.. هي دموع رقراقة تزول بمجرد أن أمسحها

بطرف إصبعي من تحت جفني، حزن مهذب جنتلمان يشجيك بكل أمان ولا يضر المعدة والقلب. الكلام كالماء الزلال سهل بلا تعقيد، لك أن تمزمز به، أو تحتسيه على مهل، أو تشربه وفمك يعب منه عباً.

سيزداد حمدك لسهولته إذا كنت قد قرأت قبل مرضك شيئاً لبشر فارس.. والتفاصيل التي يعرضها ((نجيب)) هي الوسط المثالي بين ((اللت والعجن)) وبين ((اللبيب بالإشارة يفهم)). أسلوب له قدرة هائلة على أن يمشي مع كل إنسان حسب خطوه. وعلى ذلك فلم يترك نجيب في نفسه حاجة لم يقلها، بل جعل قصته كلها خطاً متصلاً ليس فيه عقد ولا مطبات ولا محطات لا يمكن الوقوف قبل بلوغها.

لذلك كنت أقرأ الثلاثية وقت مرضي وأنا مستريح كل الراحة. أقرأ قدر طاقتي فإذا تعبت وقفت دون أن أحس بلهفة على ما فاتني. والعجيب أنني مع ذلك كنت أحس إذا عدت لها أنني كنت في شوق شديد إليها، لأنها تأخذني من جديد بين أحضانها بكل حنان، هذه هي براعة نجيب ومهارة فنه المهذب. إنه لا يهجم عليك بمخالب وأنياب، بل ينفذ إلى روحك نفاذ أبخرة الخمر، لطيفاً مترفقاً مهذباً. إنه يملكك دون أن تحس أنه يأسرك أيضاً.

من أجل هذا لم أنصحك أن تقرأ في هذا النوع من المرض ((اللص والكلاب))، فإنك لن تستطيع أن تلقيها من يدك إلا إذا فرغت منها وشعرت أنك تجري وتلهث كالكلاب.

من ٣٨° إلى ٣٨,٥

لا صبر لك على الأسلوب التقريري والمطولات، أنت تريد كلاماً كالملبس يحلي فمك دون أن يزحمه، وتستطيع أن تمصه وتقرقشه لأنه صلب هش معاً، فأصلح شيء أنصحك به عن تجربة هو أن تقرأ ديواناً من الشعر الحديث، فهو سهل القراءة خفيف الدم. لا تشغلك القصيدة - وهي من عدة صفحات - إلا دقائق معدودة لأن كل سطر كلمة أو كلمة ونصف، شكلها شكل الاستمارة!

وستعينك خلخلة صواميل عقلك قليلاً من أثر الحمى أن ينفذ من خلالها إليك بعض معانيه العميقة التي يشق فهمها على الأصحاء، وتكون مسارعتك إلى الانبساط أضمن إذا كنت من أحباب صديقي الأستاذ إسماعيل النقيب - بدار ((أخبار اليوم)) - وأهداك نسخة من ديوانه غير المطبوع الذي جعله تريقة بريئة

خفيفة الدم على الأنواع الرديئة من هذا الشعر الحديث. من روائع ديوانه القصيدة التالية.

المعزة الحمراء

في المزارع الخضراء
معزة حمراء
تمأمئ في الفضاء
في الوحدة الخرساء
ماء.. ماء
ونسيم يأتي من بعيد
حلو كالنشيد
مئذنة
وريح هب من المنزلة
وسمكة القرموط
في بحر غويط
ووطاويط
في المحيط
تقاطع الطريق - يا حبيبي!

من ٣٩,٥° إلى ٤٠,٥°

دمك يغلي، ألفاظك ذابت فوق النار في عجينة واحدة، وليس في العجين روابط ولا تسلسل. كلامك أصبح خطرفة بليغة بدون معنى عند الأصحاء، ولكنها عندك أفصح تعبير عن موضوعيتك.. كأن المحرومين من الكلام كلهم - أحياء وأمواتاً - قد وجدوا في فمك مخرجاً لكبتهم، فألقى كل واحد ما عنده إلقاء حجارة من كيس.

ومن وراء هذا السيل المنهمر غير المفهوم نطق أخرس لرصيد من الآلام والأوجاع والأشواق والصبابة لم تصب قط من قبل في ألفاظ. فأنت في هذه الحالة أصلح قارئ للأدب السيريالي. أحدثك عن تجربة. ظلت معي مسرحية ((في انتظار غودو)) لصامويل بيكيت شهوراً طويلة وأنا مصمم على قراءتها وحاشد كل جهدي لفهمها.

وكما يفعلون بالجواد قبل السباق كنت أريح نفسي في التنزه والترفيه استعداداً للجلسة التي أتناول فيها المسرحية، حتى لا أتهمها بأنني لا أفهمها لأنني متعب أو كسول أو سارح الذهن. ومع ذلك قرأت صفحة أو صفحتين فلم أفهم شيئاً. وعدت من جديد إلى ((الريجيم)) القديم وتناولت المسرحية من جديد، فإذا بها تزداد غموضاً. المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين: إما أن يكون المؤلف مخبولاً أو أكون أنا المخبول.

فلما قرأتها وقد بلغت درجة الحمى بمستوى ٣٩,٥ هالني أنني فهمتها بسهولة، بل وجدتها آية في البلاغة والذكاء. هزتني مأساتها إلى درجة القهقهة التي تسيل الدموع، وأنحيت على نفسي باللائمة وأزريت بها لأني لم أفهمها وأنا صحيح. كيف حدث ذلك. وأصبحت المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين: إما أن يكون المؤلف وأنا من المخبولين أو يكون المؤلف وأنا من أحكم الحكماء وأعظم الفلاسفة. وطبعاً فضلت الفرض الثاني.. لأنه كان واضحاً كالشمس.

هذه هي مشكلة المدرسة السيريالية. إن عملها يعتمد على التمزيق، وأدواتها هي الأشلاء، ومنطقها هو الخطرفة، لأنها نابعة رأساً من النفس الإنسانية في عز اتقادها وبغير زيف أو خداع. إنها تبصق على كل القواميس وكتب النحو لأنها تعتقد أن ضمير الإنسان قادر على الكلام بصوت أخرس لا لغة له ولا نحو ينفذ إلى النفوس فيرجها رجاً شديداً.

وكان من دلائل شفائي من مرضي الذي أقعدني في الفراش هذه الأيام الأخيرة وحرارتي ٣٩,٥° أنني استطعت أن أترجم لك منولوجاً في هذه المسرحية ينطق به رجل هو رمز للإنسان الأسير في يد الظلم الإجتماعي، الضائع في الكون، لايفهم شيئاً، ولا ينقطع تشوفه للفهم. أترجمه لك لأنني حين قرأته في درجة ٣٩,٥° كنت أقهقه من تريقته على كلام الفلاسفة والفقهاء، وباطن التريقة حزن شديد وألم ممض، ومأساة الإنسانية كلها:

قال ((لاكي)) - وهو خادم في عنقه حبل وله اسم من أسماء الكلاب: بفرض ما تنطق به المؤلفات العامة لكاني وماني من وجود إله شخصي - احم احم احم - بلحية بيضاء - احم احم احم - خارج عن نطاق زمن بلا مليانه، وقداسة سليانه يحبنا حباً شديداً مع وجود استثناءات لأسباب مجهولة، ولكن الزمن سيكشف عنها، وهو مثل أمونه المؤلهة يتألم مع كل الذين أطيح بهم في النار، من نارها وسعيرها إذا

طال بهما العمر. وهل في ذلك شك سيحترق الكون بمعنى اندلاق الجحيم على السماء، ماتزال زرقاء ساكنة كل السكون بسكون وإن يكن منقطعاً إلا أنه أفضل من لاشيء. مهلا مهلاً، ونظراً لما هو أكثر من ذلك تشهد المؤلفات التي لم تتم والتي خلفها شرم وبرم للأثرويوبوبولوجيا، بأنه نبت بدون وتوجهاً المجلجلجلس الأعمل كل شك إلا الشك العالق بأعمال الإنسان أنه نتيجة للمؤلفات التي خلفها كاني وماني دون اتمامها ولأسباب مجهولة من ينكره الكثير من أن الإنسان عند شرم وبرم أن الإنسان باختصار أن الإنسان في كلمة وجيزة بالرغم من تحسن الأكل والهضم يذوب شوقاً وضياعاً ثم يذوب شوقاً وضياعاً)).

للمونولوج بقية طويلة أؤكد لك أنني ترجمتها أيضاً ولكني أعفيك منها الآن. على كل حال أقترح على ((مسرح الجيب)) أن يقدم هذه المسرحية في الموسم القادم، وينص في الإعلان: ((ممنوع الدخول إلا لمن كانت درجة حرارته ٤٠°))!

("المساء"، ١٩٦٢/٨/٢٧، ص٨)

حماقة..

كان يوماً لا أدري بوجه من تصبحته، فلم يخرج من يدي إلا أن أقوم من ارتكاب حماقة سخيفة لأرتكب حماقة أشد سخفاً، أول محاولة للبحث عن تفسير معقول - والبحث في الحقيقة هو عن تبرير واهٍ جداً يمسح خجلي وينسيني جراحي - أن قلت لنفسي : لاشك أنك كنت في ذلك اليوم الأغبر فريسة إعياء شديد. ركبك منذ أن استيقظت. والإعياء على الصبح ألعن من الإعياء آخر النهار. الإعياء

يخرس صوت العقل والحكمة ويفسد الاتزان.. وأكثر جرائم العصر ليس مرجعها الانفعال أو العنف، بل الإعياء، ((فالغريب)) في قصة ألبير كامي لم يقتل لأنه كان منفعلاً ثائراً، بل لأنه كان مصاباً بإعياء روحي أورثه زهقاً شديداً.. من الناس كلهم. من الحياة كلها.. لا وصف لجريمته إلا بأنها كانت حماقة كبيرة. ولحسن الحظ كانت حماقاتي صغيرة، لأنني لست بطلاً، لا في الحياة ولا في قصة، وإلا لكنت قد قتلت أنا أيضاً - ربما - في ذلك اليوم الأغبر.

ورغم الإعياء بقيت لي والحمد لله مسكة من العقل. فلم ينطل على هذا التفسير، هذا التبرير، وقبلت أن أواجه الحقيقة، ولو كريهة.. أدركت أن مرد حماقاتي الصغيرة هو طبع أغالبه منذ أن وعيت لنفسي فلا أغلبه بضربة قاضية، إن صرعته أحياناً صرعني أحياناً.. وحين أدركت ذلك لم يكن ندمي على ما اقترفت بأقل من حسرتي بأن العمر الطويل الذي قطعته والتجارب العديدة التي حصلتها له تقتلع هذا الطبع من جذوره، وكانت جداتنا تقول: طبع الإنسان لا يفارقه إلا على ليفة المغسل.. أي عند باب القبر.

حاشا أن أزعم لنفسي فضيلة أتجمل بها وأزهو، فأدعي أن مرد هذا الطبع هو وثوق متأصل بلا برهان ورغم الدروس التي تدحضه بأن الناس كلهم مجبولون ـ مثلي! ـ على سماحة النفس.. على افتراض مبدئي لحسن النية لا لسوء النية في كلام الغير وتصرفاته. فلو كان هذا هو الحال لما عد ما ارتكبته حماقة.. الحقيقة الكريهة التي واجهتها إن مرد هذا الطبع هو تضعضع سخيف مستخذ وانهزام سريع أمام الميل إلى فتنة الإعجاب بالنفس.. أي توهم قدرتها على الانفراد ـ في زعمها ـ بالتحلي تلقائياً بميزة لايبلغها الغير ـ إن بلغها ـ إلا بمشقة، بابتكار ما يعجز عنه الغير، ولكن ـ صدقني ـ أنني أتحامل على نفسي، كعادتي، فلم أكن في ذلك اليوم الأغبر إلا ضحية قلمي، وهو منساق كالأعمى مع تصاريف اللغة ونزواتها، فالذي ارتكب الحماقة هو لا أنا، وكل كاتب يعلم: كما هناك زلة لسان، هناك زلة قلم.

دعني أرو لك ما حدث:

كنت أكتب مقالاً أريده أن يتصف بالظرف لكي لا أثقل على القراء. وأعجبني هذا الظرف فغفلت عن قلمي وهو منساق مع تدفق اللغة وإيحاءاتها فإذا بالظرف ينقلب إلى تظرف مفتعل. أقرع.. فجاء قميئاً بارداً سمجاً، دمه كالبق، وانساق قلمي بسبب هذا التطرف المجوج فخرجت منه نكتة سخيفة جداً، لا أدري كيف رضي أن يكتبها أو أن يسكت عليها بعد أن كتبتها فلا يشطبها ولم أتنبه فوق ذلك إلى قدرة هذه النكتة السخيفة على إصابة الأبرياء.

ودهشت أبلغ الدهشة حين حدثني صديق أعزه وقال لي إن عشرة أشخاص على الأقل حملوا إليه هذا المقال وقالوا له وهم يضعون الأصابع السبابة على النكتة المكتوبة: انظر، إنه يقصدك، هذه هي حقيقته.. خذ حذرك منه وإن زعم أنه صديقك.

وصديقي لحسن الحظ رجل كر يم ابن ناس. فزجرهم وقال لهم: لا شأن لكم بما بيني وبينه، أنا أدرى به منكم.. كم كنت أتمنى أن أرى وجوههم حينئذ، أظنها علتها حمرة الكسوف والخجل؟. هيهات!. يارب.. لماذا يتطوع أناس بالوقيعة بين الناس.. يظنون أن هذه الوقيعة سلم يرقون به إلى الفوز بصداقة من ورائها منفعة، ولو كان كل الناس كصديقي.. هيهات.. لهووا من هذا السلم حقراء أدنياء فتندق على الأرض رؤوسهم الماوية كالبطيخ الفاسد. ولكن رؤوسهم لاتزال سليمة كالزلط لأنهم وإن كثروا، فأمثال صديقي قليل.

الحماقة الأخرى التي ارتكبتها مردها أنني أفرطت في الحماس ـ كما أفرطت

من سابق في التطرف ـ فوقعت هذه المرة في التهور.. كان ذلك في حديث عن رجل أجنبي رأيته يتولى عنا خدمة الخط العربي والعناية به، أعترف بأنني مطبوع على التعصب والغيرة الشديدة في كل ما يمس أمتي، لا أرضى إلا أن نقوم نحن بما هو واجب علينا، لا نقعد فننتظر أن يتولاه الغير عنا، استسلمت للانفعال والحماس، وبالغت في صب قوايم اللوم على هذا القعود منا، من فرط التحمس وقعت في التهور.. فأنكرت جهوداً كثيرة بذلت عندنا، غمطت حق أصحابها، ظلماً مني، وكان ينبغي أن أثوب للرشد فأشيد بفضلهم وأشكرهم.. وأظننا من الشعوب التي تهيم بتعذيب أنفسها بالنقد المرير والاستخفاف بكل ما تفعل.

أنصحك إذن ـ وإن وثقت أن نصحي سيضيع هباء عندك ـ لا تفرط في التظرف السمج، وأن لا تفرط في الحماس لئلا تقع في التهور الأحمق.

("التعاون"، العدد ٣٨٥، ١٩٧٠/٧/٥، ص١٠)

لقاء الحياة..

في التحول من الصبا إلى الشباب حين بدأت أستفيق للقاء الحياة، وأتأمل في وجوه الناس، وأقول أين طبعك من طبائعهم، هذه المحاولة للاندماج في المجتمع تستحق أن توصف بأنها عصبية، لأنها تجري في سراديب النفس وسط أسرار ووراثات مجهولة، وغالباً بلا وعي بها، وبدون إرشاد من أحد وبلا سند من التجربة، ومع ذلك فسيطغى أثر هذه الفترة القصيرة العابرة على بقية العمر كله. من ذلك اللقاء تخلف في ذاكرتي إحساس أمض قلبي حينئذ بأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أنماط.

نمط تتمثل له الحياة في صورة قنيصة ممتنعة ماكرة، لا تؤخذ مواجهة دون رضى منها واستسلام ولا تؤخذ غلاباً، وفي وضح النهار، بعد قياس قوة القانص بقوتها في معركة شريفة تستنكر الغدر. وإنما تؤخذ بالالتفاف من ورائها، بالحيلة والمؤامرة. ليس هذا فحسب، بل يحس هذا النمط أيضاً أنه يسلب هذه القنيصة لنفسه من يد الغير، لو فتشت صدره لوجدت فيه ضمير اللص. ليست المعركة بقياس القوى - ثنائية بين القانص والقنيصة، بل ثلاثية بقياس المكر - بين مكر القانص، ومكر القنيصة ومكر بقية الناس.

يوصف هذا النمط بأنه حويط، ماء من تحت تبن، أزرق الناب. ورأس الفضائل عنده في الصمت والتكتم والمداراة، والشك والريبة والحذر. كلامك إليه مهما كان بريئاً وجاء عفواً من غير سابق تدبر، حتى في أتفه الأمور، تتلقاه أذن له تبدي

الذكاء - بمعناه اللغوي، وتتلقاه الأذن الأخرى - وهي تبدي البلاهة - بالفحص والامتحان والتقليب على الجنبين لتعرف ما تحته وما وراءه، لأنه مؤمن أن كل الناس مثله.

تستطيع أن تقول إن هذا النمط مصاب بحول لا في عينيه بل في أذنيه. باب بيته لا يفتح مباشرة على الحوش المكشوف، بل على ممر مسقوف طويل يتعرج ذات اليمين أو ذات اليسار قبل الوصول. وغلق النافذة ألذ على يده من فتحها.

ليس هذا حاله مع الدنيا فحسب، بل مع الآخرة أيضاً. فقد أحسست أن الجنة عنده هي أيضاً قنيصة تؤخذ بالمكر والحيلة، الشريعة نصوص للظواهر لا نبراس للقلوب، والتدين مغامرة مضمونة: إن صدق الوعد فقد كسب وخسر غيره، وإذا لم يصدق فلن يخسر شيئاً، سيكون مثله مثل بقية الناس.. لن يكسب أحد شيئاً دونه.

والنمط الثاني عنده أن الحياة هي عملية نصب كبيرة. إنها مسرحية عالمية: وراء الستار تيه بلا حدود أو معالم، ليس به ساعة تدق، وفيه حشد من المخاليق الغلابة، كلهم سواء في المنشأ والمصير. وأمام الستار حيز محدود مكاناً وزماناً.. هذا يقوم بدور الملك، وهذا بدور الخادم. هذا هو الضاحك وهذا هو الباكي، أبطال وكومبارس. ولكن كل هذا لعب في لعب ونصب في نصب، وعما قليل سيسدل الستار ويبتلع التيه كل الممثلين، فإذا هم من جديد جملة من المخاليق الغلابة، كلهم سواء في المنشأ والمصير. ولا يكفي هذا اللعب كله، بل المسرحية ذاتها غير مفهومة لا معنى ولا فرضاً، ومع ذلك لا ينقطع تمثيلها ليلة بعد أخرى، وتقابل بالتصفيق والصفير معاً.

وهذا النمط لا يعيش الحياة، بل ((يمثل)) أنه يعيش الحياة. إنه نمط مأساوي. في القلب ضياع، وعلى الشفاه ابتسامة الاستخفاف. هذا النمط هو عادة ظريف، خفيف الدم، بحبوح، مستهتر، فضفاض، متلاف سكير، يكربه عنف الدهاء، بل فرط الذكاء. المحنة عنده هي الفصل الأخير في المسرحية، مؤجل تمثيله لما بعد، لا داعي لأن يشغل به نفسه الآن. ولكنك إذا فاجأته بسؤالك: من أنت وماذا تفعل؟ لحار ولم يستطع أن يجيبك.

والنمط الثالث عنده أن الحياة حيوان ضخم، وأنه هو وليدها، حيوان مثلها، هي أكل وشرب وتناسل، كل متعة أخرى إذا لم ترتد إلى لذة حسية فهي هراء. قد يكون من خريجي أكبر المعاهد ولكن لغته ستظل دائماً هي لغة الحواس، والجنة عنده دوام نسيانه بين لذائذ الدنيا الحسية.

تبينت هذه الأنماط فانقبض قلبي. أحسست أنها تخدعني عن الحياة. كنت واثقاً أن الحياة في حد ذاتها متعة ليس كمثلها متعة. ولكن يهدرها ويفسدها ويثلم شرفها أن تؤخذ بالحيلة والمكر والمؤامرة - كالنمط الأول - أو بالنصب وتمثيل دور من الأدوار دون أن أعيشه كالنمط الثاني، أو أن أعيشها معيشة الحيوان - كالنمط الثالث.

إن أردت تعلم هذه المتعة فينبغي لي أن أتبين أنها أكبر نعم الله سبحانه علي، وأن ألقاها رافع الرأس وجهاً لوجه، لقاء حبيب بحبيب، وتمنيت أن لو أصبح شاعراً يتغنى بالحياة. وما ألذ أحلام الشباب.

("التعاون"، العدد ١٧٤، ١٩٦٦/٦/١٩، ص ٨)

مجرد ظهور..

كم عمر التلفزيون؟ لم ينفع مر الزمن الطويل ولا الألف والعادة في تهدئة عنف هذه الهجمة، إنها لاتزال تتكرر معي بنفس الشدة وصدق الوفاء لم أظهر في التلفزيون مرة إلا كان حتماً أن أقع من غد - وربما على الريق - في هذه التجربة القاسية، يلمحني في الطريق أحد معارفي القريبين أو المتطوحين فيهجم علي، وقد ينتقل جرياً من رصيف إلى رصيف معرضاً نفسه للدهس ويوقظني من سرحاني ويشد على يدي ووجهه متهلل بالبشر والفرح كأنه يحمل إلي أجمل تهنئة على فوز عظيم:

- رأيتك أمس في التلفزيون..

يتملكني حينئذ شعور غريب، كما تتملك الأرض في تلك اللحظة قدمي المسمرتين، نصفه تبليم، لاشك أن فمي أصبح نصف مفتوح انفك رباط شفتي السفلى، اندلق دلو من البلاهة على وجهي، لساني يحاول أن يعثر على كلمة غير بائخة فلا يفلح، لا أدري ماذا أقول له؟ هل أقول متشكر! أشكره على ماذا؟ من الغرور أن أشكره لأن عينه تكحلت برؤية طلعتي البهية، ثم - يا أخي - لكن من الذي ينبغي عليه أن يشكر الآخر، أنا أم هو؟ ها أنذا أهرب من الغرور فأقع فيه بلا وخز من الضمير، وكل مغرور يزعم أن ليس في العالم رجل حقاني مثله، أم أقول له: طيب ياسيدي، وماذا جرى في الدنيا أو للدنيا؟ فأجابه بتقريع مهما تستر بالأدب أو المزاح فإني أكره لنفسي، لست قواماً على الناس حتى أوزع عليهم التقريع بالعدل والقسطاس، وأشد الناس إرهافاً للأعصاب هم الحنابلة القوامون على الناس. إني

أحب المثل البلدي القائل ((واحد شايل دقنه، وأنت تعبان ليه؟)) وإن كنت لا أدري معنى كلمة شايل هنا؟ أهي محلوقة هذه الذقن، أم مرفوعة في الهواء من الكبر والخيلاء؟

ونصفه إحساس بالحسرة، أظل أتطلع إلى وجهه وأحملق في عينيه مستجدياً عبارة تثلج صدري يضيفها على هذا الخبر العظيم، خبر رؤيته لي في التلفزيون، أستجدي منه أن يقول لي: وكان كلامك حلواً و أفكارك رائقة أو حتى أن يقول وافقتك على رأي وخالفتك في رأي أو حتى والله العظيم أن يقول كان كلامك زفتاً وآراؤك قطراناً، فأنا لم أذهب للتلفزيون وأنا مصاب بالخرس، لا لشيء إلا لأن تظهر للناس طلعتي البهية ولا أنبس بحرف، بل ذهبت لأتكلم، لأقول شيئاً نافعاً في ظني، أملاً أن يكون كذلك في حكم الناس، الناس العقلاء طبعاً! الذين يفهمونها وهي طائرة.

نظرتي المستجدية منه ولو قرشاً لا تظفر منه حتى ولا بمليم، أتنازل عن آمالي الكبار وأستجدي منه ما هو دونها بكثير ، مادام أن فرحته برؤية طلعتي البهية قد جبت عنده كل مقدرة على السمع، ولا أقول على الفهم، فلا أقل من أن يقول لي: وكان وجهك مشرقاً كالبدر، أو حتى: لحظت أنك كنت متجهماً مقطب الأسارير فلماذا؟ أو حتى ـ والله العظيم ـ كنت كالأعمش في غمرة الضوء! لازلت أحفظ له إنسانيته فلا أتوقع منه أن يهبط إلى الدرك الأسفل من الحماقة فيكلمني عن أناقة بذلتي وشياكة رباط عنقي، أو اختلاف العصا التي أحملها معي كل مرة من جلسة إلى جلسة، ثم يخامرني الشك في هذه الإنسانية حين أتهرب من فهم نظرته وأنا أهرب منه، إنها تكاد تنطق بلمحات من جوع مرير أو مرارة جائعة، هذا هو سر لمعانها، كأنه يغبطني على فوز نلته ولم ينله هو بعد.. هذا الفوز العظيم هو الظهور في التلفزيون.. مجرد الظهور؟

هل ظلمته؟ ربما انتقل إليه الهوس بالعدوى البصرية.. فهو معذور، فلعل أغلب الذين يظهرون في التلفزيون تترنح أعطافهم بفرحة الظهور في التلفزيون، مجرد الظهور، بذلة التلفزيون هي بذلة الأعياد، السوداء المخططة أو الكحلي المنغمشة، ورباط الرقبة تم شراؤه في اليوم ذاته، والحذاء لميع، والجلسة بحساب واللفتة بتقدير، والتخشب على أتمه، حتى الأطفال في برنامج ((ماما سميحة)) يتزاحمون بالمناكب ليتحقق لهم الفوز العظيم.. الظهور في التلفزيون مجرد الظهور.

بل قد قبل بعض من أكبرهم وأجلهم أن تستذلهم خيلاؤهم قبل الجلوس أمام العدسة في برنامج أدبي في العلالي يعني عن سارتر أو بيكيت مثلاً، فإلى اليوم لاأزال أذكر شهقتي حينما قابلت صديقي هذا ذات مساء في دهاليز التلفزيون، فقد خيل إلي أنه أصيب فجأة بارتفاع مخيف في ضغط الدم، أو أن مرضاً جلدياً عجيباً قد طفح على وجهه فأصبح لونه لا هو أصفر ولا هو أحمر ولا هو أبيض بل بين بين، لعلّ أصدق تشخيص أنه أصيب لتوه بفقر شديد في الدم، فحول عينيه هالات سود، وأنا لا أعرفه يكحل جفنيه.. هجمت عليه أقول له: مالك سلامتك، دعني أصحبك إلى البيت.. فإذا به يبتسم لي ويقول:

- قيل لي إن المكياج ضروري لأجل أن تكون صورتي طبيعية..

فقلت له وأنا أكتم خيبة أملي: طبعاً، طبعاً!!

(" التعاون"، العدد ١٣٩، ١٧/ ١٩٦٥/١٠، ص٨)

المهنة

حكم كثيرة موروثة، عملة متداولة، ولكنها عند تجربتها تتبين أنها من قبيل (الماركة) التي يصطنعها صاحب القهوة لمحاسبة الجارسون دفعة واحدة - لا بالقطاعي - بعد التشطيب، (ماركة) مستديرة تنوب مناب قيمة كوب من الشاي (وماركة)، مضلعة تنوب مناب قيمة شيشة حمى لا يريد صاحب القهوة أن يخوت دماغه ويجد الفكة كلما مر الجارسون أمامه حاملاً طلب الزبون، من السياسة والراحة تأجيل ساعة الحساب. ساعة يتبين المكسب من الخسارة، ما أحلى التعامل بالوهم!.. ولكنك إذا ذهبت بهذه (الماركة) إلى السوق ونزلت إلى معتركه الفعلي الرهيب لما وجدت بائعاً يقبلها منك، أو حتى صرافاً يفكها لك، ليفك زنقتك.. حكم كثيرة هذه حالها، صالحة طالما بقيت خارج السوق، باطلة، فالصو.. داخلة - رغم بريقها - ربما بسبب بريقها.. دلالة على أن تداولها كان بغير دعك وامتحان، كل ما أريد لها من صنعها هو فض مجالس، أو إغلاق فم ثرثار، أو نفض اليدين من عناء الحساب، والتهرب من المواجهة.

وقد تعلمت الاحتراس من هذه الحكم التي تشبه (ماركة) صاحب القهوة... كالحكمة القائلة: ((من فكر في بلوى غيره هانت عليه بلواه))، فهذه الحكمة تقفز إلى ذهني ويرددها لساني على الفور كلما أخذ إنسان يشكو لي هماً له، بدلاً من أن يهز رأسه اقتناعاً بها ويطيب خاطره ويشكرني عليها أحس أنه امتلأ بمرارة يأس تضاف إلى همه، جلله بواخ هيهات أن يغفر لي أنني سببه، نطقت نظرته بالغيظ، وربما بالكراهية، هذا - أولاً - وقع النصيحة على النفوس.

وكل الحكم مصوغه في قالب نصائح، يد الناصح هي العليا، كأنها تملك الكون، أين كل عقل وحنكة من عقلها وحنكتها.. ويد المستنصح هي الدنيا.. فارغة، مفلسة، سقيمة، ذليلة بكونها غناجة، لأنها محتاجة.. فكيف لا تكره اليد الدنيا اليد العليا التي تتعاظم عليها.. شاطرة لأنها على البر، ثم ـ وثانياً ـ يقول لي الشاكي في سره جنتك بسرطان فوصفت لي قرص إسبرين: وما شأني أنا بهموم الآخرين، هي ظن والثابت هو همي، همي أنا، طمعت أن أجد عندك الفرج لا نكدا فوق نكد.. بتحميلي أيضاً هموم الآخرين.. المخرج عنده من مأزقه أن يلجأ إلى التحدي. تقول لي نظرته بجرأة مفتعلة إنه مستعد لأن يبادل همه بأي هم للآخرين، إذ هم خيابة، أما هو فسيعرف كيف يختله ويكسر شوكته.

ما نلت من استخدام حكمة ((من فكر في بلوى غيره)) إلا أنني خسرت صاحبي بدلاً من أن أكسبه، فاعتزم الاحتراس من قادم مع غيره، ولكني أقع دائماً في عين المطب.

جميع المقدمات مجعولة للفضفضة بمخزون من فلسفة فارغة، شبيهها صوت يصك الآذان ويزكم الأنوف، وفي أغلب الأمر لا علاقة لها بصلب الموضوع، لهذا أقرأ كتباً كثيرة بعد عدة صفحات من الفصل الأول.. لأن المقدمة لابد ساحت عليه أيضاً، فاغفر لي ماتقدم من ذنبي وسخافتي وتعال الآن بكلام خفيف لجعل الحكمة إياها مثار ابتسام لا مثار فلسفة، فهي تثب لذهني فابتسم كلما كان الطلب مني أن أملأ استمارة لاستخراج بطاقة أو لتسجيل نزولي في فندق، أجيب على سؤالها عن اسمي وتاريخ ميلادي بسهولة، لا عن يقين بل عن اصطلاح بيني وبين الناس لا ينقضي تشككي فيه وعجبي منه. فإذا جئت لسؤالها عن ((المهنة)) تردد القلم في يدي ونظرت في وجه من يناولني الاستمارة في بلاهة وخجل.. يا لها من بلوى، حينئذ أعمد لتهوينها على نفسي إلى التفكير في بلوى الآخرين، بلوى الصديق صلاح طاهر مثلاً لو كان مكاني.. ماذا يكتب؟. هل يقول ((فنان)) فيحسبه مناول الاستمارة ممثلاً أو مخرجاً للمسرح أو السينما، وربما يحسبه أيضاً من طقم الراقصين في فرقة للفنون الشعبية، وفيهم من لايقل كرشه عن كرش صلاح الآن.

ليس في لغتنا اليوم كلمة عائمة مبهمة مختلطة سايحة مثل كلمة ((فنان)).. إذن هي لا تصلح.. هل يقول ((رسام))؟.. هذه الكلمة خرجت من التداول، اختص بها رسام المساحة الذي يقيس حدود الأطيان، وإذا توكل على الله وقال: مصور..

فهل يضمن ألا يجيئه سؤال: مصور فوتوغرافي حضرتك؟.. هل يمكن أن يجيبه:لا بالزيت.. أو بالفحم؟.

حالي مهما شق أخف من حاله، أفكر في بلواه فتهون بلوتي، الحكمة إياها نفعت هنا.. فأنا أتردد رغم الابتسامة ماذا أقول.. هل أقول ((كاتب)) فلا أضمن أن يجيئني سؤال كاتب حسابات؟. كاتب طبونة؟ كاتب عمومي أمام محكمة؟.. أم أقول: أديب.. الأدب صفة.. فهل يصلح أن يكون صنعة أو مهنة.. هل الأدب ثوب ألبسه عند الشغل ثم أخلعه عند الفراغ.. وماذا يبقى على جسدي؟. قلة أدب.. أم أقول: ((مؤلف)) فأتعرض لخيبة الأمل إذا نفيت لمناول الاستمارة بعد سؤاله أنني مؤلف أغاني، ورأيت أن احترامه لي قد قل.. فأنت ترى أن لا مهنة لي تصلح للكتابة في استمارة.. وأخيراً أهتدي إلى الحل وأكتب ((بالمعاش)) لا أقصد أنني كنت موظفاً ثم بلغت الستين، بل إنني لا أزال أعيش.. وهي مهنة حلوة ولاريب!.

("التعاون"، العدد ٣٧٥، ١٩٧٠/٤/٢٦، ص٨)

الفهرس

مؤلفات يحيى حقي

١- قنديل أم هاشم ـ مع سيرة ذاتية للمؤلف.
٢- فجر القصة المصرية ـ مع ٦ دراسات من نفس المرحلة.
٣- فكرة فابتسامة.
٤- صح النوم.
٥- خطوات في النقد.
٦- دمعة فابتسامة ـ مع الدعابة في المجتمع المصري.
٧- دماء وطين ـ مع قصص أخرى من الصعيد.
٨- تعال معي إلى الكونسير ـ مع الكاريكاتير في موسيقى السيد درويش.
٩- ناس في الظل ـ مع شخصيات أخرى.
١٠- أم العواجز.
١١- حقيبة في يد مسافر ـ ورحلات أخرى.
١٢- عطر الأحباب ـ مع ٢٠ دراسة أخرى.
١٣- عنتر وجولييت ـ مع ١٠ لوحات أخرى.
١٤- يا ليل يا عين ـ سهراية مع الفنون الشعبية ـ مع مقالات السيرك والمولد.
١٥- أنشودة للبساطة ـ مقالات في فن القصة.
١٦- خليها على الله.
١٧- صفحات من تاريخ مصر.

١٨- من فيض الكريم.
١٩- الفراش الشاغر وقصص أخرى.
٢٠- مدرسة المسرح.
٢١- هموم ثقافية.
٢٢- تراب الميري.
٢٣- عشق الكلمة.
٢٤- من باب العشم.
٢٥- في السينما .
٢٦- هذا الشعر.
٢٧- في محراب الفن (موسيقى ـ تشكيل ـ عمارة).
٢٨- كناسة الدكان.

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-836-X





سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مع الصحف التالية

المدى	العراق
الثورة	سورية
الأيام	البحرين
البيان	الإمارات
الحياة	السعودية
السفير	لبنان
القاهرة	مصر
القبس	الكويت
الإتحاد	العراق

